رضوى عاشور

"سراج"

حكاية عربية

دار الشروق

حلمي التوني
٢٠٠٨

"سِراج"

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٨٧٧٠ /٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2387-2

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

رضوى عاشور

"سراج"

حكاية عربية

دار الشروق

(١)

آمنــة والبحر

آمنة تخشى البحر ولكنها تكذب على قلبها، تستيقظ قبل صياح الديك وتبدأ يومها بالذهاب إلى الشاطئ، تشخص بعينيها في الظلام وتهمس بالدعاء. بعدها تقصد الميناء، وتسأل: «هل من جديد؟»، «لا جديد».

تمشي في السكه الموصِّلة للتلة ثم تبدأ في الصعود إلى البيت العالي تمر بالأقبية وتسمع الأصوات المكتومة والهمهمات وتواصل الصعود إلى بيوت الحريم التي يلفها الصمت وصوت ارتطام الموج.

تصل إلى ساحة المطبخ وقد تبدد الظلام واكتست السماء بألوان الشروق فتسمي باسم الرحمن وتشرع في نقل الأجولة، تفتحها واحدًا بعد الآخر ثم تبدأ في نخل الطحين، ولا تصل النساء إلا وآمنة قد انتهت من العجين وتركته يختمر. تتوافد النساء للعمل ويحمل العبيد الوارد اليومي من الذبائح وسلال السمك وصناديق الخضر والفاكهة.

وبعد أن يؤذن لصلاة العصر تعقد آمنة منديلها على رغيفي خبز، أجرها اليومي، وتحمل صُرّتها وتعود أدراجها وعلى ثوبها وغطاء رأسها ذرّات الطحين، وفي جسدها يختلط عرق اليوم برائحة العيش المخبوز. تمر

بالميناء: «هل من جديد؟» ثم تواصل إلى الشاطئ وتجلس في مواجهة البحر تنتظر.

* * *

كانت صغيرة يلثغ لسانها ولا يزيد طولها على الأشبار الخمسة عندما اصطحبها جدها في ليلة أضاء فيها البدر الرجال والبحر. وكانوا يركبون الإبل ويسيرون بمحاذاة الشاطئ وهم يغنون، كانت خائفة رغم الغناء والضوء وذراع جدها القوية التي تحيط بها وهي تركب أمامه على الناقة. البحر في جزر وهم يتوغلون في الرمل المبلل بحثًا عن العنبر. تطلعت إلى القمر مأخوذة ثم أدارت رأسها في ذعر وبدأت تبكي وتلح في طلب العودة إلى أمها، فهل كان قلبها يعلم فحدثها؟!

الرجال يخرجون للبحر، يذهبون ويعودون، يذهبون ثم لا يعودون، فتخرج النسوة للانتظار وقد يبّس الخوف أكتافهن وحفر أخاديده في وجوههن. شاهدت آمنة كل شيء: لطم الخدود، ساعة يتأكد الخبر، وشق الثياب والعويل الذي يقطع الفضاء ويشطره كما يشطر سكين السياف الرأس الحي عن الجسد.

يقولون إن البحر كريم وهي تخشي غدره ولكنها أبدا لا تفصح بل تكذب، حتى على قلبها.

* * *

استيقظت آمنة وأفطرت رغيف خبز وثلاث تمرات وشربة ماء وقصدت البيت العالي.

كالمعتاد سمعت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر وهي تصعد التلة ولكنها على غير المعتاد وجدت أم لطيف الرئيسة وتودُّد تتسلمان الوارد اليومي

من العبيد الذين كانوا قد بكروا هم أيضًا في المجيء.. وعندما أخذت آمنة تفتح أجولة الطحين انتبهت إلى كونها أكثر من كل يوم ثم رأت العبيد يأتون بالمزيد من الذبائح والسلال والصناديق، هل هو يوم الخميس؟ في ذلك اليوم تقوم النساء بطهو طعام أوفر وأشهي لأن السلطان يدخل بامرأة جديدة ويجب أن تعم الوفرة والفرح على أهل بيته، ولكنه لم يكن الخميس وما حمله العبيد أضعافًا مضاعفة، فما المناسبة يا ترى؟!

قبل الضحى كانت ساحة المطبخ قد اكتظت بالنساء اللاتي انهمكن في إعداد الطعام، وأعلنت أم لطيف بصوتها الجهوري أن العمل في المطبخ سيستمر يومين متتاليين لأن السلطان يقيم وليمة كبيرة في اليوم التالي.

هل ينوي السلطان الزواج بامرأة ثانية غير السيدة علياء بنت المحسن زوجته الشرعية وصاحبة الأمر والنهي في البيت العالي؟ للسلطان أكثر من خمسين جارية دخل بهن وأنعم الله عليه بالعشرات من البنين والبنات، بعضهم تزوج وأنجب له الأحفاد وبعضهم ما زال رضيعًا على صدر أمه، ولكن السيدة علياء ـ وهذه إرادة الله العلي القدير ـ بقيت بلا ذرية، تدب بقبقابها المطعم بالذهب والجواهر فترتجف القلوب رهبة ويركض الصغار فزعًا ولا يتنفس أهل البيت العالي الصعداء إلا عندما تحمل بنت المحسن هداياها النفيسة وترحل إلى اليمن بصحبة خادماتها لزيارة والدها. ولكن غيابها لا يدوم إلا شهرًا تعود بعده لتنشر العبوس والخوف حيث تدب بقبقابها المرصع، امرأة صارمة جامدة القلب لا تبتسم فهل امتدت قسوة قلبها إلى أحشائها فصارت أرضًا حجرية لا تثمر فيها بذور أم تحجّر قلبها حسرة على غياب الخلف؟ تساءلت آمنة وهي تقف أمام النار تسوي الأرغفة، غيبة الأولاد لا تحجر القلب العطوف، عمّار كان يخبئ قطعة السكر في جيبه لسعيد، عمّار المقطوع كفرع شجرة، لا أب،

لا أم، لا زوجة، لا أولاد، ويمتد رغم ذلك كأفرع الياسمين على جدران الدور يحكي الحكايات للصغار الذين يطالبون بها أمهاتهم ساعة النوم «نريد حكاية من حكايات عمّار» نفس الحكايات التي قصها عليها وهي طفلة.

ـ احك لي حكاية يا عم عمّار.

ـ حكاية الضفدع الذي تزوج باثنتين وصار ينق شاكيًا طول الليل أم حكاية الصندوق الذي لملم فيه الأطفال النجوم؟

ـ حكاية الشمس والقمر..

يقصها عمّار فتضحك آمنة وتمسك بطرف جلبابه لكي لا يتركها.

ـ لا بد أن أعود إلى القلعة يا آمنة.

ـ سأتركك تذهب بعد أن تحكي لي حكاية صندوق النجوم.

فيحكي لها الحكاية ثم يمضي إلى عمله.

«غيبة الأولاد لا تحجر القلب العطوف».. تمتمت آمنة وهي تواصل الخبيز.

بعد صلاة العشاء توقفت النساء عن العمل وجلسن لتناول الطعام، رغيف لكل واحدة وحبات من التمر. سألت إحداهن الرئيسة:

ـ بالله عليك يا أم لطيف ما هي المناسبة في تلك الوليمة؟

راوغت أم لطيف في الإجابة منتفخة الأوداج لكتمانها ما تودّ النساء معرفته.

ـ هل يتزوج السلطان بامرأة أخرى؟

فزّت أم لطيف واقفة كأنما بنت المحسن فاجأتها بالدخول، وصاحت موبخة وجسدها البدين يهتز منفعلا:

ـ يا خرقاء يا مجنونة، سأقطع لسانك إن سمعتك تتفوهين بمثل هذا الكلام.

السيدة علياء ابنة سلطان وهي سيدة الجزيرة فكيف يتزوج السلطان عليها؟!

ـ ما المناسبة إذن؟

ـ سيزور الجزيرة ضيوف كبار.

ـ هل يزورنا سلطان زنزبار؟

ـ هل يأتي والد السيدة علياء من اليمن؟

ـ هل يطلب أحد أمراء عُمان واحدة من بنات السلطان؟

كانت الأسئلة تنهمر على أم لطيف من النساء وقد أحطن بها ولكنها لم تقل شيئًا بل قامت متثاقلة إلى بيت الخلاء، ثم عادت وهي تبتسم ابتسامة مزهوة عارفة بكل شيء وجلست في صمت وإن لم تتوقف عيناها عن التطلع إلى الوجوه في انتظار مواصلة الحديث. ولكن النساء الباديات التعب اضطجعن مستسلمات للنعاس فلم تملك أم لطيف الانتظار أكثر وأعلنت بصوت أرادته همسًا وإن رن كالجرس:

ـ غدًا تأتي ملكة الإنجليز لزيارة الجزيرة.

قامت النساء اللاتي لم يكن النوم قد غلبهن واعتدلت الأخريات في جلستهن ليصخن السمع.

ـ الإنجليز؟

ـ نعم ملكة الإنجليز!

ـ وهل تحكم الإنجليز امرأة؟!

ـ تحكمهم امرأة، هكذا الأجانب كل شيء عندهم معكوس!

قالت تودّد وهي تبتسم في خبث:

ـ كل شيء عندهم معكوس، يلبسون القباقيب في كفوفهم ويسيرون على أيديهم!

صاحت امرأة بدهشة:

ـ سبحان الله!

ضحكت تودّد.

همست أم لطيف كأنها تفشي سرًا خطيرًا:

ـ ستأتي ملكة الإنجليز مع زوجها ولكن زوجها ليس الملك إنه فقط زوج الملكة.

ـ لا إله إلا الله!

ـ وهل تستطيع الملكة شراء العبيد؟

ـ طبعًا تستطيع.

ـ وتستطيع مضاجعتهم بالحلال؟

هنا حارت أم لطيف وأربكها السؤال كأنه معضلة مستحيلة الحل فلم تجب.

قالت تودّد:

ـ لو كان مسموحا في شرع الإنجليز أن تضاجع الملكة عبيدها بالحلال فلا بد أن الأولاد ينسبون إليها، أليس كذلك يا أم لطيف؟

بقيت أم لطيف صامتة حتى أتاها سؤال آمنة كقشة الغريق.

ـ متى تصل السفينة يا أم لطيف؟

ـ غدًا بعد صلاة الظهر، هذا ما قالته السيدة علياء.

لم تكن آمنة منشغلة بحديث النسوة ولا بحل معضلة أم لطيف، كان قلبها يرفرف رجاءً، فمن يدري لعل بحارة سفينة الملكة رأوه أو لعله عاد معهم، هل يعود معهم؟ قضت آمنة ليلتها بلا نوم تفكر في سفينة راسية يطل منها وجه سعيد كالقمر.

في الصباح اكتظت ساحة المطبخ بالنساء وقد انهمكن في الإعداد للوليمة، يخلطن الأرز بالتوابل والزبيب واللوز، يحشين الخراف، ينظفن الأسماك ويقلينها، يعددن الخضرة لطهوها، وجاءت نساء السلطان لصنع مأكولات شهية لا يعرف أسرارها إلا هن، النساء الشركسيات والحبشيات والروميات انفردت كل مجموعة منهن بركن من المكان لإعداد أطباق يبهرن بها أقرانهن وتشهد بتفوق عرقهن.

ثم ظهرت علياء بنت المحسن ودارت في الساحة تراقب العمل وتلقي بتعليماتها وأوامرها. ورحبت بها نساء السلطان ودارين الكره وراء ابتسامات الولاء وعبارات التحية وتبعتها أم لطيف لاهثة تكرر «أمرك يا سيدتي»، «رضاك هو عين المراد»، «تأمرين فنطيع يا جوهرة الجزيرة وولية نعمتها»، وما إن غادرت بنت المحسن ساحة المطبخ حتى هرولت أم لطيف إلى بيت الخلاء وغابت حتى بدا أنها سوف تقيم فيه.

ضحكت تودّد ومالت على آمنة وهمست:

ـ بنت المحسن طويلة كالنخلة وأم لطيف تتبعها مفرطة القصر يكاد القيام لا يزيد في قدها. مسكينة أم لطيف!

ـ تودّد، هل تذهبين معي لسؤال البحارة الإنجليز عن سعيد؟

ـ أذهب.

وما إن انتهت آمنة من عملها حتى طلبت من أم لطيف أن تسمح لها هي وتودّد بالذهاب.

احتجت الرئيسة بأنه «لا وقت، ولا داعي» ودارت دورة في الساحة تباشر العمل، ثم عادت وقالت: «اذهبي يا آمنة لعلك تسمعين خيرًا.. الله كريم.. اذهبي معها يا تودد».

في الطريق سمعت آمنة وتودّد طلقات المدافع التي لم تكن تطلق إلا مرتين في العام، ليلة العيد الصغير وليلة العيد الكبير. استبشرتا خيرًا وواصلتا الهبوط من التلة حتى أبصرتا الحشد الصاخب والرجال المصطفين عند مدخل الميناء ينفخون أبواقًا نحاسية ويدقون طبولاً معلقة برقابهم.

ثم ظهرت الملكة: امرأة بدينة تلبس ثوبًا يكشف عن نحرها ويكسِّم خصرها ويتسع أسفل الخصر مثقلاً بالثنيات منتفخًا كأنه خيمة تتسع لعدة أشخاص. تكاد ملامح وجهها الدقيقة تغرق في وجه كروي مورد يعلو كتفيها مباشرة كأنها بلا رقبة، وعلى رأسها تاج وعلى صدرها قلادة وفي أذنيها قرط وفي أصابعها خواتم وعلى رسغيها أساور، كلها من الماس يلتمع التماعًا في ضوء شمس الظهيرة. سارت الملكة بخطا وئيدة بصحبة

السلطان الذي بدا بجوار جسمها الرضراض نحيلاً وهزيل البنيان يلبس جلبابًا أبيض وعباءة موشاة وعلى رأسه عمامة. ومن خلفهما سار رجال بيض في زي أشبه بملابس قباطنة البحرية.

رافق السلطان ضيفته إلى مركز الساحة حيث نصب ميزان كبير صعدت الملكة على إحدى كفتيه. واستغربت آمنة عادات الإنجليز الذين يزنون ملكتهم هكذا في الميادين. استدارت لتودّد وهمست لها باستنكار:

ـ هل يفعلون ذلك لمعرفة كم يزيد وزنها في بلادنا؟!

تقدم العبيد من الميزان وأخذوا يحمّلون كفته الأخرى بسبائك الذهب. هتفت تودّد:

ـ السلطان يريد إكرام الملكة بإهدائها وزنها ذهبًا.

علق رجل يقف بالقرب منهما:

ـ ولكن هذا خراب بيت، إنها بدينة جدًا!

ابتسمت تودّد بسخرية:

ـ وما عليها من ملابس وحلي يزن عدة أرطال!

وتمتمت آمنة:

ـ سبحان الله.. سنة الأغنياء عجيبة!

نزلت الملكة وصافحت السلطان، وسار الموكب في اتجاه القلعة وسط صخب الحشد ودق الطبول ونفخ الأبواق. وذهبت تودّد لتأتي بحافظ لكي يعينهما في إيجاد شخص يتحدث الإنجليزية ليسأل البحارة الإنجليز. وجلست آمنة تنتظر حتى عادت تودّد بحافظ والشخص المطلوب فقصدوا البحارة.

«صبي في الرابعة عشرة اسمه سعيد وأبوه عبد الله وأمه آمنة. وجهه أسمر وشعره أجعد وعيناه خضراوان وتحت حاجبه الأيمن ندبة قديمة. كان يلبس جلبابًا أبيض ويتحرز بحجاب بحجم نصف كفّي».

«اسمه سعيد وأبوه عبد الله الغواص وأمه آمنة الخبازة».

أظلمت الدنيا وآمنة وتودد يتبعون الفتى الذي يتحدث لغة الإنجليز ويعيد الكلام المرة تلو المرة على مسامع البحارة الذين جاءوا على سفينة الملكة، ينصتون ثم يهزون رءوسهم بالنفي.

(٢)

هموم السلطان

ما إن أبحرت سفينة الملكة حتى استدار السلطان عائدًا إلى القلعة وهو يتمنى ألا تعود سفينة للإنجليز لترسو على شواطئ جزيرته بعد ذلك أبدًا.

عندما تقدم إليه الأدميرال سيمور بطلبه نيابة عن حكومة جلالة الملكة طلب مهلة للتفكير. فكر في الكتابة إلى سلطان زنزبار ليسأله النصح والمشورة ثم عدل تحسبًا. فماذا لو استفاد هذا الثعلب من ورطته؟ قد يظن به الضعف ويجرد حملة ويستولي على الجزيرة، وقد يتواطأ مع الإنجليز فيخلعونه وقد يعينون بنت المحسن حاكمة بدلاً منه، أليس أبوها في اليمن صديقهم وحبيبهم، ألا تحكم الإنجليز امرأة؟

الإنجليز شر لا بد منه، أيقن بذلك منذ سنوات فأرسل بابنه محمد للدراسة في بلادهم. قال له: «اذهب يا محمد وانتبه لكل ما يحدث من حولك ويحيط بك وكن لي العين الثاقبة وعد لتحكي لي عن سنتهم وقانونهم وعرفهم وتفاصيل حياتهم، أخبرني بكل شيء وكن حريصًا على نفسك ومالك ودينك ولا تخالطهم إلا بالقدر الذي يخدم غرضك

وبعثتك، ولا تعاقر من النساء إلا ما أحلت لك أيمانك من جواريك، ولا تأكل لحم الخنزير ولا تشرب الخمر وإلا أضعت عقلك وانطمست فكرتك وصرت كأولئك البحارة في الحكاية القديمة الذين أكلوا من طعام المجوس فصاروا كالإبل لا يعلموذ ما يُفعل بهم، يأكلون فيتسع جوفهم فيزيد لهم المجوس حتى يسمنوا فيذبحوهم ويأكلوهم».

فتح السلطان خزانة وأخرج منها الصندوق الذي يحتفظ فيه بمراسلاته وأخذ منه رسالة محمد ليعيد قراءتها:

«هذه بلاد أمرها عجيب وشرعها غريب وأعراف أهلها تختلف عنا غاية الاختلاف.

ملكتهم تتربع على العرش وتلبس تاج الملك ولكن صولجان الحكم ليس في يدها بل في يد وزراء لهم رئيس ومجلس مختار يناقش أمور الدولة ويفتي في شئونها ويدفع للملكة أجرًا سنويًا معلومًا.

وفي البلد زراعة وتجارة وصناعة، تدور معامل الصناعة ليل نهار بآلات ضخمة لم تشاهد عين مثلها من قبل، ويشغل الآلات الألوف المؤلّفة من الرجال والنساء والأطفال.

وإن اختلف الشغيلة مع أصحاب المعامل في شأن من شئونهم يخرجون مجتمعين إلى الشارع ويسدّونه وهم يهتفون بمطالبهم، وقد يشتبك معهم رجال الدرك الذين تستأجرهم الحكومة لحفظ أمنها.

والنساء في البلد سافرات، منهن من يلزم داره ومنهن من يشتغل في المعامل ومنهن من يدرس في معاهد العلم، ولقد شاهدت جمهرة من النساء ازدحمت بهن الطرق يطالبن بالمساواة مع الرجال في اختيار أعضاء المجلس الذي يسيِّر أمور الحكم والسياسة.

عاصمتهم أكبر من جزيرتنا، شوارعهم واسعة تضيئها الفوانيس

المغروسة على جانبي الطريق كالأشجار، موانئهم مزدحمة بسفن كالعمارات، وحوانيتهم مكدسة ببضائع واردة من مشارق الأرض ومغاربها ومعامل صناعتهم تتجاور في مناطق بعينها يصطبغ هواؤها بالسواد الذي تنفثه المداخن العالية.

وهذا يا والدنا السلطان ليس إلا أقل القليل من الكثير الذي رأيناه وأدهشنا وسوف نوافيكم بالمزيد».

أعاد السلطان قراءة رسالة محمد ثم طواها وأرجعها إلى حيث يحتفظ بها.

الإنجليز يضغطون الآن ومنذ سنوات، يضغطون ويتحكمون، ولا يرحمون حتى أصدقاءهم المقربين، وها هو سلطان زنزبار يعاني الأمرين منهم ويضطر لمسايرتهم حتى وهو يرى خراب بلاده فيما يفرضونه، وهو بلا حول ولا قوة كعصفور بين مخالب صقر.

رأى بأم عينيه كيف أملوا على والده السلطان خالد رحمه الله الامتناع عن الاتّجار بالرقيق، تجارة كلها خير تجلب المال الوفير وتوفّر العبيد عماد الزراعة في الجزيرة، كانت السفن تذهب إلى الشواطئ الإفريقية تهاجم ما تيسر من القرى، وتعود محملة بذهبها الأسود فيبيعون بالحلال ويحتفظون بالأشداء من الرجال والنساء، ولكن الإنجليز ضغطوا ثم هددوا حتى اضطر والده، رضوان الله عليه، إلى الرضوخ، قال والده: «الحمد لله يا بني مزارعنا آهلة بالعبيد وهم يتوالدون بإذن الله ونعمته».

ثم توفي الوالد الكريم وخلفه ذاك الأبله عليّ الدين الذي وفقه الله في التخلص منه فوطد ملكه وأقام دولته بالعدل والحق، فماذا لو أتى الإنجليز الآن ونقلوا نظامهم إلى جزيرته وسمحوا للعبيد بالخروج مجتمعين يعلنون مطالبهم كما يفعل شغّيلة المعامل في بلادهم؟!

العبيد مناكيد لا ينفع معهم إلا العصي والسياط، إن نتساهل في أمرهم يقلبون أوضاع الجزيرة رأسًا على عقب وينصبون أنفسهم أسيادًا عليها. كان والده، طيب الله ثراه، حكيمًا ثاقب البصر قال «احذر العبيد يا نعمان هم نصف سكان الجزيرة إن قاموا علينا ضاع ملكنا وضعنا، تصدّق عليهم من مالك ولكن إياك والتساهل معهم، إن تر بوادر تمرد لدى شاب من شبابهم فألق به في القبو عبرة للآخرين، لا تنتظر أن يفعل شيئًا بل اكسره قبل أن يتجاسر على الفعل، وهكذا تجتث الكبر من نفوسهم وتبث الخوف في قلوبهم وتضمن انصياعهم لسلطانك، الصيادون والبحارة والحدادون والنجارون، أولئك جميعًا مقدور عليهم فهم أقل عددًا وأصغر تجمعًا والحقد في أفئدتهم أقل اضطرامًا، لا تأمن أحدًا يا بني، احذر الجميع ولكن عليك بالحذر من العبيد خصوصًا؛ فالغدر من طبعهم وهم أنجاس مناكيد ورثوا عن إبليس الكبر، ولولا غضب الله عليهم لما خلقوا عبيدًا».

امتنع الوالد، رحمه الله، عن الاتجار في العبيد وكتب التزامًا على نفسه ولكن سفن الإنجليز التي جاءت للتفتيش والتأكد بقيت تروح وتجيء في المنطقة بحجة منع القرصنة وضمان حماية التجارة وأمانها.

وعندما تولى السلطة جاءوا يطالبونه بالامتناع عن تأسيس أية محطة لدولة أخرى في جزيرته فوعدهم، ولكنهم كانوا يريدون الصك المكتوب فكيف يقول لهم لا وليس لديه قوة يعارضهم بها، كان الاختيار صعبًا وكلا البديلين مر، إن قال لا خلعوه وإن قال نعم قيّدوه، أعطاهم الصك:

«أنا الفقير لله تعالى نعمان بن خالد سلطان جزيرة غُرّة بحر العرب، أتعهد وألتزم على نفسي أن لا أدخل في قرار ولا اتفاق ولا محاورة مع دولة أخرى بغير رضاء ورخصة الدولة البهية الإنجليزية، ولا أقبل ولا أمنح ولا أبيع ولا أرهن أي جزء من أرض الجزيرة لوكلاء أو رعايا أي دولة أجنبية.

ورغبتي أن أكون في عهدة وحماية الدولة البهية الإنجليزية ملتزما بآرائها وأنظارها والله على ما أقول شهيد».

كان يعرف وهو يوقع الصك أنه كالأحمق الذي يفتح للغريب بابه ويدعوه إلى عقر داره ولكن لم يكن باليد حيلة، ولا كان بمقدوره أن يقول لا ناشزة وقد انصاع غيره من حكام أكبر وأقوى.

شره الإنجليز بلا حدود وها هم الآن يطالبون بإنشاء محطة لعسكرهم في جزيرته.

خرج السلطان إلى إحدى شرفات القلعة وشخص بعينيه إلى ساحل الجزيرة، كان مهمومًا منقبض القلب يفكر في ملكه المهدد: حر أمواله، هذه الجزيرة وأرضها وعبيدها واللؤلؤ في أعماق بحرها والعنبر الطافي على أمواجها ـ ملكه الموروث بالحلال فكيف يحتفظ به؟ إن سمح للإنجليز بإنشاء المحطة يجتاحونه بعسكرهم وتجارهم، وإن لم يسمح يفرضون مطالبهم بالقوة وقد يخلعونه أو يحتفظون به كما احتفظوا بأبي زوجته وغيره من سلاطين القبائل المتاخمة لعدن بلا حول ولا قوة، يخدمون الإنجليز في مقابل راتب شهري لا يتجاوز الخمسمائة ريال، والألمان ليسوا أفضل ولا أكرم، إن لجأ إليهم يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار. فيأتي الألمان ويأتي الإنجليز ويتقاسمون الجزيرة ويصير محاصرًا ومسحوقًا بين الاثنين. بدا للسلطان أن هناك حربة مصوبة إلى كل من عينيه وأن عليه أن يختار إحداهما ليطعن فيها.

على مدى الأسابيع الثمانية التالية ركب الغم السلطان فلم يدخل بأي امرأة جديدة ولا ضاجع أيًا من نسائه القديمات حتى انتشرت الأقاويل في البيت العالي ومنه إلى باقي الجزيرة، قال البعض إن السلطان مريض، وقال البعض الآخر إنه لم يعد قادرًا على النكاح، وسرى الهمس بأن أحدًا من أعدائه سحر له فأصبح عنِّينًا بين ليلة وضحاها، وتطلعت العيون إلى

بنت المحسن وهي تدب بقبقابها المطعم بالذهب والجواهر، فمن غيرها يكون الفاعل؟

ثم وصل الأدميرال سيمور موفدًا من قبل حكومة جلالة الملكة فأكرم السلطان وفادته وأعلنه أنه يرحب بأن يكون لعسكر الإنجليز محطة في «غرة بحر العرب»، وأن وجود هذه المحطة خير للجزيرة وشرف لأهلها وتكريم لحاكمها.

لنا شرط واحد، سنقتطع لكم المكان الذي تطلبونه من شواطئها والمساحة التي تحتاجون إليها، وشرطنا الوحيد ألا تسمحوا لعسكركم بالخروج من المحطة ولا الاختلاط بأحد من سكان الجزيرة.

قال الأدميرال سيمور:

ـ من حيث المبدأ لا مانع لدينا ولكن هناك بعض الاعتبارات العملية التي يجب التفكير فيها.

ـ مثل؟

ـ مثل تموين المحطة وخدمتها.

ـ هذه مسائل صغيرة يا سيدي الأدميرال، سوف نوفر لكم الحبوب واللحوم والخضراوات والفاكهة والماء العذب وعددًا من العبيد لخدمتكم.

هؤلاء العبيد هبة مني يصبحون من حر أموالكم يقيمون مع عسكركم في المحطة ولا يغادرونها ولا يعودون إلى مخالطة أحد من أهل الجزيرة.

تم الاتفاق وسجل كتابةً على الورق ووقع عليه الأدميرال سيمور ممثلاً لحكومة جلالة الملكة ومهره السلطان بختمه السلطاني.

* * *

(٣)

ذكرى ما جرى لسعيد

عاد سعيد إلى الميناء فلم يجد السفينة راسية، وسأل عشرات البحارة والحمالين وقطع الميناء من أقصاه إلى أقصاه مرات عديدة، حتى مالت الشمس ثم غاب قرصها وراء البحر وأعتمت الدنيا وتوغل الليل.

جلس منهكًا وجائعًا لا يصدق أن السفينة أبحرت بدونه ولا يفهم لماذا غادرت قبل موعدها.

عندما كان يفرط في الضحك مع صديقه حافظ كانت أمه تتوجس وتتمتم: «اللهم اجعله خيرًا». فهل كانت تعرف أن المتعة العظيمة لا بد وأن يعقبها هم كبير؟!

لم يسعد سعيد في حياته كما سعد في اليوم السابق وهو يتبع الولد محمود في شوارع المدينة التي بدت له كصندوق للعجب، فرّجه الولد محمود على وابور الحديد الذي ينفث الدخان ويجري على عجل ويطلق صفيرًا كصفير السفن، كما فرّجه على المركبات التي تجرها الخيول في الطريق المُمهَّد فلا يثير وقعها غبارًا، شاهد قلعة قايد باي الأكبر من قلعة السلطان وقصر الخديو الأضخم من القلعتين، ورأى بأم عينيه الأماكن

التي يرتادها الناس، يجلسون على مقاعد ويطلبون المشاريب فتأتيهم وهم جالسون كالأمراء. عندما يرجع للجزيرة ويحكي لحافظ قد لا يصدقه ويظن نصف كلامه من صنع الخيال.

قال له الولد محمود:

ـ يا بختك يا عم، تركب السفن وتطوف البلاد وترجع كما السندباد البحري تسكن في قصر وتدعو أصحابك وتقيم لهم الأفراح والليالي الملاح!

ـ ومن هو السندباد البحري؟

ـ ألم تسمع به؟!

-لا..

ـ ولا الشاطر حسن؟!

ـ لا أعرفه.

فسأله الولد محمود مستغربًا:

ـ ولا عرابي؟!

ثم بدأ يحكي له حكاية وراء أخرى ينتقل من الشاطر حسن وهو يواجه الغولة فتقول له: «لولا سلامك سبق كلامك أكلت لحمك قبل عظامك»، إلى عرابي على حصانه في الميدان يقول للخديوي: «لسنا عبيدًا ولست سيدنا»، إلى الخواجة الذي يعمل أخوه في بيته «له وجه كمؤخرة السعدان ويأكل رطلين من اللحم كل يوم»، إلى السندباد الذي حمل شيخًا مريضًا على كتفيه ثم رأى حوافره فعرف أنه الشيطان متنكرًا.

وكان سعيد يمشي وراء صاحبه مشدوهًا بحكاياته وظرفه وتعليقاته الساخرة. ورغم كلام الولد محمود عن كونه محظوظًا بركوبه البحر، كان

سعيد يشعر أن المحظوظ هو محمود؛ لأنه يعيش في هذه المدينة الجميلة الواسعة العامرة بالبنايات والعجائب.

سار معه من برج قايد باي إلى برج السلسلة، ومن محطة الإسكندرية إلى أسواقها المزدحمة بالباعة والشارين ولما أخذ منهما التعب مأخذه وقرصهما الجوع جلسا يأكلان خبزًا وأقراصًا شهية ساخنة من مأكول مقلي في الزيت اشتراه الولد محمود، وراح سعيد يلوكه مستطعمًا وهو يردد في عقله باستمتاعه العجيب: «فلافل». أكل الولدان معًا حتى شبعا وتعاهدا على الصداقة. وكان قلب سعيد تعلق بالولد محمود كأنه يعرفه طوال عمره لا منذ يومين عندما رست السفينة في ميناء الإسكندرية، وتمنى لو طال به المقام في المدينة.

ولكن سعيد وقد رحلت السفينة لم يكن مبتهجًا لفكرة بقائه في الإسكندرية. كان خائفًا إلى حد الفزع فلا مكان يؤويه ولا عمل يأكل من منتوجه وليس أمامه سوى الانتظار للغد ليبحث عن الولد محمود ليساعده. وماذا إن لم يجده؟ غلبه النعاس قبل أن يجد إجابة عن سؤاله واستغرق في النوم حتى الصباح.

كانت الشمس على وشك الغروب عندما ظهر أخيرًا الولد محمود وكاد سعيد ينفجر باكيًا وهو يركض في اتجاهه ويحكي له ما ألمّ به.

أخذه محمود إلى بيته وقضي ليلته بين أهله الذين أطعموه وسألوه عن أهله وبلده وقال له أبو محمود وهو يربت على كتفيه: «يقولون إن السفن الإنجليزية تقترب من شواطئنا وتقصد بنا شرًا وقد يكون قبطان سفينتك عجَّل بالرحيل حين علم بالأمر. لا تخف ولا تحمل همًا أنت في بيتك وبين أهلك، وغدًا آخذك مع الولد محمود لتعمل معنا حمّالاً بمحطة القطارات، والخيرة فيما اختاره الله».

قضى سعيد ثلاثة أيام مع الولد محمود كادت تنسيه ما أصابه. في النهار ينهمك في حمل حقائب المسافرين وأمتعتهم، وفي المساء يأخذه الولد محمود للتنزه في المدينة، يتحدثان ويضحكان ويأكلان الترمس وحب العزيز ويمران من تحت نافذة البنت التي أسرّ له الولد محمود بحبه لها: «وجهها كالقمر.. وابتسامتها، آه لو رأيت ابتسامتها يا سعيد!» يمران أمام البيت ويختلسان النظر إلى النافذة ولكن الحظ لم يحالفهما.

بدا لسعيد أن الله قد عوضه خيرًا فلم يفكر لا في السفينة التي تركته ولا في أمه التي تنتظره حتى كان اليوم الرابع الذي فاجأه بالدويّ المزلزل، وسرى الخبر في المحطة أن المراكب الإنجليزية تقصف الطوابي ثم تتابع القصف من جهة البحر عاليًا ومتصلاً، فبدأ الناس يهرولون إلى بيوتهم وهم يسبّون الإنجليز ويدعون لعرابي أن يكسر شوكتهم ويهزمهم شر هزيمة.

سأله الولد محمود:

ـ هل أنت خائف؟

ـ لا.

ـ إذن تعال معي.

ـ إلى أين؟

ـ إلى البحر لنعرف ما يجري.

كان سعيد يفضل العودة إلى البيت ولكنه لم يقل لصاحبه فماذا لو ظنه خائفًا؟!

توجها إلى الشاطئ وكان خلق كثيرون يركضون بالاتجاه المعاكس ويقولون إن مراكب الإنجليز تضرب في كل الاتجاهات، على العجمي

والمكس وقايد باي وباب شرق، وشاهدا بنفسيهما مقذوفات النيران تنطلق من البحر مصوبة إلى الطوابي.

ـ ولكن لماذا يضرب الإنجليز مصر يا محمود؟

ـ لأنهم أولاد كلب.

ـ ولكن لماذا؟

لم يجب محمود عن سؤاله، رآه سعيد يقفز في الهواء ويحرك ذراعيه كالممسوس ويصيح:

ـ انظر يا سعيد، اسمع يا سعيد، الطوابي تجيب عليهم، الإنجليز يضربون من البحر والطوابي ترد، الطوابي تضرب عليهم كما يضربون علينا.. عرابي جدع، عرابي جدع يا ناس..

وعلي غير توقع أخذ الولد محمود يركض، ولم يفهم سعيد ما الذي دهى صاحبه، كان يجري كالريح لا يلتفت وراءه ولا يلوي على شيء. راح سعيد يركض وراءه ويناديه حتى تقطعت أنفاسه دون أن يلحق به فتوقف لاهثًا ويائسًا حتى رآه يغيب عن عينيه.

وقف ينتظر عودته، ولما طال انتظاره عبر الطريق وقرفص مستظلاً بمدخل بناية مواجهة للشاطئ، ولكن لماذا ركض الولد محمود هكذا فجأة؟ هل ذهب لمساعدة رجال عرابي في قلعة قايد باي؟ ولماذا لم يقل له ليذهبا معًا؟!

ظل سعيد مقرفصًا في مكانه ينتظر وعيناه مثبتتان على الطريق.

كان القصف توقف وخيّم هدوء مطبق على المكان وبدت الطريق مهجورة، لا مارة، لا عربات تجرها الخيول، لا باعة ترمس أو عرقسوس أو ذرة مشوية، ولما أظلمت الدنيا فكر سعيد في العودة إلى البيت، قد

يكون الولد محمود سبقه إليه، وماذا إن لم يكن قد عاد ـ سيسأله أبوه وأمه عنه فماذا يقول لهم؟! ثم إن الولد محمود قد يأتي هنا للبحث عنه، إن لم يجده سيظنه جَبُن وتركه وذهب.

قرر سعيد البقاء في مكانه حتى يعود الولد محمود ولما طال انتظاره خشي أن يغلبه النوم فقام واقفًا وظل يروح ويجيء وعيناه مثبتتان على الشارع تطالبان بوجه صاحبه وعينيه الضاحكتين ولفتته الأليفة، يستطلع صورته ويستحضرها لتهل ويحدق في الطريق فلا يجد إلا العتمة الموحشة، حتى طلع عليه الصباح، ثم تجدد القصف وتتالت المقذوفات تصم الآذان «ما الذي حدث الآن؟» تساءل سعيد وقد اجتاحه خوف عارم وبدأ يكرر لنفسه بصوت عال: «لا بد من البحث عن الولد محمود، لا بد من البحث عنه» ثم أخذ يركض في نفس الاتجاه.

عندما اقترب من القلعة شاهد عساكر كثيرين يغادرونها، كان بعضهم مضمد الرأس أو مجبور الساعد وبعضهم يحمل نقالات يرقد عليها الجرحى، البعض يهرول والبعض يمشي بخطا وئيدة، ووجوه الجميع شاحبة وشعثاء. راح يسألهم عن الولد محمود فنصحوه بالابتعاد عن المكان.

ـ لقد دُمِّرت المدافع وتهدمت الطوابي ورفعنا الأعلام البيضاء، والإنجليز قادمون.

ـ والولد محمود؟

لم يجد من يجيبه عن سؤاله ولكنه لم ييئس وواصل الصعود حتى اعترض طريقه رجل مهيب له شارب أبيض كث، يلبس زيًا عسكريًا ويبدو من كبار الضباط:

ـ إلى أين يا ولد؟

ـ أبحث عن الولد محمود.

ـ أخوك؟

ـ نعم أخي.

ـ هل هو جندي؟

ـ لا إنه حمَّال في محطة قطارات الإسكندرية وقد ركض في هذا الاتجاه بالأمس ساعة القصف وهو يصيح: إن عرابي جدع.

ـ ما عمره وكيف يبدو؟

ـ إنه في الخامسة عشرة، يكبرني بعام ولكنه أنحف مني وأقصر. كان يلبس جلبابًا أزرق وطاقية بيضاء. هل رأيته؟

ـ عد يا بني إلى والديك فليعوضهما الله ويعوّضنا.

ـ هل رأيته؟

ولما لم يجبه الضابط ركض سعيد قاصدًا المدينة، «قد يكون في المحطة يحمل أمتعة المسافرين.. وربما عاد لأمه.. وربما يقف تحت نافذة البنت التي يحبها.. لا بد أن أجده».

كان يجري محمومًا والقصف يرج المدينة ويحتل فضاءها إلى أن وجد نفسه وسط حشد من البشر يهرولون في صخب. كانت الطريق مكتظة بالرجال والنساء والأطفال. الرجال يسبون الإنجليز ويدعون عليهم بالخراب، والنساء يولولن والأطفال يبكون والجميع يحملون صغارًا أو أمتعة أو حصرًا أو سلة أو قفصًا به بعض دجاجات.

مشى سعيد معهم إلى حيث لا يدري وقد استحال المشي في اتجاه مغاير، ولما طالت الطريق سأل سعيد رجلاً مسنًا يسحب نعجة:

ـ أين نحن الآن يا عم؟

ـ بالقرب من ترعة المحمودية يا بني.

ـ هل نبعد كثيرًا عن المحطة؟

ـ أية محطة؟

ـ محطة القطارات.

ـ نحن خارج الإسكندرية يا بني. لقد هدم الإنجليز الطوابي وأصابوا المحطة والبيوت المجاورة ومات الكثيرون والإنجليز يواصلون الضرب ليهدموا المدينة بالكامل. الله يخرب بيوتهم، الله ينتقم منهم، الله..

ـ وعرابي يا عم؟

ـ عرابي؟

لم يكرر سعيد السؤال، شق طريقه بصعوبة وسط الحشد الغفير ومشى في سكة جانبية وقد عقد العزم على العودة إلى الإسكندرية «لابد أن أبحث عن الولد محمود، لا بد أن أجده».

ظل سائرًا بين الحقول حتى دار رأسه وزاغت عيناه فانتحى جانبًا من الطريق ونام.

في الصباح واصل رحلته في الطريق التي بدت له طويلة جدًا، كلما أيقن أنه اقترب من الإسكندرية وجد نفسه محاطًا بالجديد من الحقول.

كانت الشمس على وشك المغيب عندما التقي رجلاً يجر جاموسة وبغلة قبل أن يسأله سعيد عن الطريق بادره الرجل بالسلام وسأله:

ـ إلى أين يا ولد؟

ـ إلى الإسكندرية.

ـ ولماذا إلى الإسكندرية يا ولد والإنجليز يضربونها، هل تريد الدفاع عنها؟

ـ أبحث عن صاحبي، لا بد أن أعود إلى الإسكندرية لأجد الولد محمود.

ـ تعال يا ولد شاركني هذه اللقمة وأسمعني حكايتك.

افترش سعيد الأرض مع الرجل الذي وضع أمامهما رغيفي خبز وقطعة جبن ورأسين من البصل، جلسا يأكلان وقص عليه سعيد ما حدث.

ـ هل تظن أن مكروهًا أصاب الولد محمود يا عم أبو إبراهيم؟

ـ تحمَّل وكن رجلاً شجاعًا، لقد تركت أولادي في القرية لألحق بجيش عرابي، سأرسلك إليهم، قل لهم إنك التقيت بي وإنني أريدك أن تقيم معهم حتى أعود من الحرب.

قام الرجل وأتي بحصيرة من على ظهر بغلته وفردها:

ـ الآن ننام وفي الصباح أصف لك الطريق إلى القرية.

دق سعيد الباب ففتحت له أم إبراهيم وقد بدا عليها الاضطراب وهي تقول بصوت خافت:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، من أنت يا ولد؟

ـ أنا سعيد جئت من طرف أبو إبراهيم، التقيت به وهو في طريقه للحاق بجيش عرابي.

ـ أهلاً وسهلاً، تفضل.

ما إن دخل سعيد حتى التف حوله الأولاد وعجوز صغيرة الحجم، متلهفين على سماع ما عنده ثم أخذ الأولاد يمطرونه بالأسئلة عن

الإسكندرية وعرابي ومراكب الإنجليز. وقالت أم إبراهيم لأولادها وهي تضع طعامًا أمام سعيد: «اتركوه ليأكل ويستريح والصباح رباح». ورغم أن سعيد لم يكن قد أكل شيئًا طوال اليوم ولا مس الزوادة التي أعطاها له أبو إبراهيم في منديل معقود إلا أنه لم يكن جائعًا بل كان يشعر بثقل في رأسه وألم محرق في عينيه ووهن في مفاصله.

وضع رأسه على الحصيرة واستغرق في النوم وعلقت أم إبراهيم: «مسكين هدَّه التعب». ولكنها اكتشفت أثناء الليل أن سعيد يهذي فوضعت يدها على جبينه فإذا به ساخنًا كالنار.

خمسة أيام قضاها سعيد وهو محموم رعته فيها أم إبراهيم بفزع ولهفة كأنه واحد من أولادها. ولم تكن تعرف إن كان عطفها الشديد عليه لأنه «غريب يا عين أمه» أم لذلك الشبه الذي استوقفها منذ فتحت له الباب بينه وبين المرحوم إبراهيم، نفس السن والطول والبنية، الأولاد أيضًا لاحظوا ذلك وأشاروا إليه أمام زوجة جدهم التي قالت: «قد يكون عفريتًا احذروا منه»، فضحكوا.

أحب الأولاد سعيد كما أحبته أم إبراهيم وتلهفوا على قيامه معافى كما تلهفت، حتى البنت لوزة بنت العشرة شهور كانت تحبو إلى الحصيرة التي يرقد عليها ولا يحلو لها الجلوس إلا بجواره.

وكانت الست سجر هي الوحيدة بين أهل الدار التي لم ترحب به وأصرت على شكها في أمره: «العفاريت وحدها هي التي لا أصل لها ولا يعرف لها أب ولا أم ولا بلد.. وهذه الجزيرة التي يقول إنه جاء منها لم يسمع بها أحد.. سمعنا عن مصر والحجاز والسويس والسودان وعن غيرها لم نسمع!».

ـ والإسكندرية يا ستي سجر؟!

ـ الإسكندرية؟!

تقول العجوز باستنكار:

ـ لم نسمع عنها وحتى اسمها غريب!

فيتخابث أحد الصغار ويغمز لإخوته وهو يقول:

ـ يمكن بلد عفاريت يا ستي.

ـ الله أعلم.

فيضحك الأولاد وتقول الست سجر بغضب:

ـ عيال جهَّال وقليلو التربية!

ويوم تعافى سعيد وراحت السخونة من جسمه ذبحت له أم إبراهيم دجاجة وأوصت الأولاد أن يتركوها له وحده: «الولد ضعيف وجسمه مهزوم، وبإذن واحد أحد عندما يرجع أبوكم بالسلامة أذبح لكم ثلاث دجاجات». وتابع الأولاد أمهم وهي تذبح الدجاجة وتنتف ريشها وتغسلها وتسلقها ورأوا سعيدًا وهو يشرب مرقها ويأكل لحمها الطيب لكن واحدًا منهم لم يطلب مشاركته.

أقام سعيد مع أم إبراهيم كأنه واحد من أطفالها وكانوا ستة، أربعة أولاد أكبرهم يصغره بسنة، وبنتان واحدة ما زالت تتعثر في الكلام والثانية لم تتعلم المشي بعد، وكان الأولاد يذهبون كل صباح إلى الكتاب ثم يلحقون بأعمالهم في الحقل بعد الظهر. وكانت دهشتهم كبيرة عندما عرفوا أن سعيد لم يمسك بفأس في حياته وزاد استغرابهم عندما أخبرهم أن العبيد هم الذين يزرعون الأرض في بلاده.

ـ وبماذا يشتغل أبوك؟

ـ أبي مات بعد شهور من ولادتي.

ـ ولكن ماذا كان يعمل قبل أن يموت؟

ـ كان غواصًا.

ـ ما معنى غواص؟

ـ يغوص في البحر ويجمع المحار.

ـ وما هو المحار؟

ـ قواقع مغلقة عندما نفتحها نجد بداخلها كرات صغيرة رطبة ناصعة البياض هذه الكرات هي اللؤلؤ وبعضه ثمين جدًا، أثمن من الذهب.

ـ كان أبوك من الأغنياء إذن؟

ـ لم يكن أبي يملك اللؤلؤ.

ـ كيف، ألا يصيده لنفسه؟

ـ كان يغوص مع غيره من الغواصين إلى قاع البحر، كل غواص يحمل سكينًا ويربط خصره بحبل يمسك بطرفه الآخر شخص يبقي في المركب. الغواص يقفز إلى الماء ويغوص فيه والممسك بالحبل يرخيه، وعندما ينتهي الغوص يشده فيصعد الغواص إلى المركب وقد ملأ كيسه بالمحار الذي يأخذه ريس المركب ويفرزه ويعطيه للسلطان الذي يدفع لريس المركب والغواصين أجر يومهم.

ـ وهل يعطيهم أي لؤلؤ؟

ـ لا..

ـ ولا لؤلؤة واحدة!

ـ لا..

ـ غريب!

ـ وكيف يتنفس الغواص وهو تحت الماء؟

ـ يكتم أنفاسه طوال فترة الغوص.

ـ وإن لم يستطع؟

ـ يختنق ويغرق وهذا ما حدث لأبي.

ـ هذا عمل صعب جدًا، الفلاحة أسهل!

ولكن سعيدًا لم يجد الفلاحة أسهل، أن تنزل البحر وتكتم أنفاسك لدقائق ثم تخرج إلى المركب أسهل من أن تضرب الأرض بفأسك أيامًا وأيامًا، تحرثها وترمي فيها البذور وترويها وتتعهدها شهورًا طويلة ثم تعود تعمل لأسابيع متتالية في حصاد غلتها.

مع ذلك تعلم سعيد أن يمسك بالفأس وأن يعمل مع الأولاد في الحقل بعد عودتهم من الكتاب. وفي غيابهم كان يستذكر الأبجدية التي علموها له، وينقل الماء العذب من الطرنبة التي بالطرف الآخر من القرية ويذهب إلى السوق ليبيع البيض الذي تبيضه دجاجات أم إبراهيم، ويلاعب الصغيرتين، ألف القرية والبيت وكل من فيه باستثناء «ست سجر» التي كانت دائمة التذمر؛ لأن «أبو إبراهيم» أخذ الجاموسة وحرمهم من حليبها والبغلة فاضطرها للذهاب إلى الحقل مشيًا وتظل تكرر «يا خايبة يا أم إبراهيم ضحك عليك زوجك وقال آخذ الجاموسة والبغلة لعرابي وذهب يتزوج عليك في بلد ثانية!».

كان اليوم يمر على سعيد بهدوء وألفة وينتهي دومًا بتلك الجلسة المسائية مع الأولاد يتسامرون ويضحكون، يحكون له عن الشيخ الضرير الذي يعلمهم في الكُتَّاب وما دار من نوادر وطرائف، وهو يحدثهم عن

البحر والسفن الكبيرة التي تشق طريقها وسط أمواج عالية كالجبال والحوت الذي يهدد الصيادين أو يقذف به البحر ميتًا بالقرب من الشواطئ فيسحبونه ويشقون بطنه ويخرجون منه العنبر، وينتهي السمر كما في كل ليلة بحكاية من حكايات عمَّار يعينها الأولاد بالاسم فيحكيها لهم سعيد.

«حكاية الأسد والثعلب»، «حكاية الضفدع الذي تزوج باثنتين»، «حكاية الرجل الذي أشفق على حية يتعقبها فلاح فأجارها في بطنه»، كان الأولاد يعرفون كل حكايات عمَّار كما يعرفون عمَّارًا نفسه وآمنة وحافظًا كأنهم قد عاشوا معهم كما عاش سعيد.

يتحدثون ويضحكون حتى يغلبهم النوم، ولكن سعيدًا في النوم لم يكن يثرثر أو يضحك، كان يرى الولد محمود وهو يجري مبتعدًا فينادي عليه، ينادي ويبكي ويستيقظ أحيانًا وفي عينيه آثار دموع. كان يتمنى أن يرى في الحلم الولد محمود مقبلاً عليه بسمرته الصافية وعينيه اللامعتين وملامحه الضاحكة وجسده النحيل وجلبابه الأزرق وصوته ومشيته ولفتته، واضحًا وكاملاً. يقول سعيد لنفسه إن جاءني هذا الحلم يكون الولد محمود بخير وعافية، ومرت الأيام وسعيد ينتظر أن تأتيه هذه الرؤيا في المنام.

* * *

علت الصرخة في الفضاء فجأة ثم سكنت. لم تكن صرخة استغاثة ولا فزع بل انفلات صوت ملوَّع مكدود أو شيء آخر لم يحط به سعيد. أصاخ السمع، لم يكن هناك إلا الصمت حاضرًا مسموعًا وملموسًا يجلل الصرخة ويؤكدها. خرج ليستطلع الأمر.

سار محدِّقًا في الأبواب باحثًا عن البيت المنكوب، بدا الزقاق مهجورًا وساكنًا ولكن الصوت الآن يأتيه همهمات مكتومة كعويل مخنوق أو حشرجات امرأة في عذاب المخاض. يمشي إليه ثم يظنه خلفه فيستدير

راجعًا فإذا بالصوت يأتيه من جهة ثالثة، هل هو عفريت من تلك العفاريت الكثيرة التي تسكن خيالات ست سجر أم أن حزنًا غريبًا يسري كالعدوى في البيوت؟

عند الرجال الخبر الأكيد. مشى باتجاه الحقول، كان الهواء مزمومًا والشمس تقدح نارها على تراب الطريق، يشعر بلسعته على قدميه الحافيتين. رفع طرف جلبابه وجفف العرق عن وجهه وواصل السير.

انتصف النهار، تطلع إلى السماء كأنما ليتأكد أن الشمس قد توسطت قبتها، سيجد الرجال مجتمعين تحت الصفصافة الشرقية يتناولون غداءهم ويسألهم: وماذا لو كانت الصرخة من صنع خياله؟ والهمهمات؟! لن يسألهم. سيجلس بينهم يأتنس بصحبتهم وحين يقومون للعمل سيحمل فأسًا ويضرب معهم في الأرض يحرثها. ستوبخه أم إبراهيم لتركه الصغيرتين وحدهما في البيت بلا رعاية، توقف مرة أخرى ورفع طرف جلبابه ومسح وجهه.

لم يجد أحدًا من الرجال عند الصفصافة الشرقية ولا قريبًا منها. دار بعينيه في الحقول فلم ير إلا حمارًا سائبًا وجاموسة مقيدة في ساقية لا تدور. كانت الحقول المحروثة مهجورة تمامًا إلا من طيور أبو قردان التي حطت هنا وهناك على الأثلام المعزوقة.

ركض عائدًا إلى القرية وكلما اقترب منها اتضحت الأصوات. لم تكن همهمات بل عويلاً يتصاعد ويشتد ثم رأى النساء وقد اعتلين أسطح الدور يلطمن خدودهن ويضربن صدورهن ويمزقن ثيابهن، أو يمسكن بأطراف أغطية رءوسهن ويحركنها باليدين القابضتين في انتظام متشنج يروح ويأتي مع إيقاع البكائيات النادبة تقطعها بين حين وآخر ولولة حادة ومفاجئة لامرأة أو أخرى تتقافز كالفرخ المذبوح.

مشى سعيد من زقاق لزقاق وعيناه معلقتان بأسطح الدور وإفريزها الآدمي الناطق، يجلِّله الأسود وعويل الحداد. توقف ليمسح البلل المالح الغزير الذي غطى وجهه وعينيه. كان حزن النساء يزلزل أحشاءه، ولكنه ظل يمشي حتى قطع أزقة القرية كلها ثم وقف وقفة الحيران.

دفع بباب أحد الدور ودخل على رجال وصبية لا يعرفهم وجلس بينهم مثلهم صامتًا.

* * *

خسر عرابي الحرب فماذا لو ذهب أبو إبراهيم كما ذهب الولد محمود؟

أرَّقه السؤال ليالي متعاقبة ورغم حرارة سبتمبر كان البرد ييبس جسده ويبقيه مستيقظًا حتى الصباح.

ولكن عم أبو إبراهيم لم يغب كالولد محمود. دفع الباب بعصاه ذات مساء ودخل، فهلل الأولاد. وقالت أم إبراهيم بابتسامة حيية: «لولا الملامة لزغردت».. وقالت ست سجر: «أين البغلة والجاموسة يا أبو إبراهيم؟».. وقال أحد الأولاد مذكرًا أمه: «متي تذبحين الفرخات الثلاث؟» لم يرد أبو إبراهيم على زوجة أبيه وزجر ابنه وتطلع إلى سعيد مترفقًا يسأله عن حاله ثم طلب من زوجته أن تسخن له ماء ليغتسل. تحمم واستلقى على الحصيرة ونام.

شكت أم إبراهيم همها لسعيد وهما عائدان من سوق الخميس.

ـ أنت لم تعرف عمك أبو إبراهيم قبل سفره، كان بشوش الوجه وطويل البال، رجلاً هادئًا وناديا ومثل الفل، يضحك مع الأولاد ويسامرهم ولكنه

الآن كما ترى لا يفتح فمه إلا لزجرهم أو تهديدهم بالضرب أو يبقى ساكتًا كأنه نسي الكلام، ست سجر تقول: «عرابي عمل له عمل» فتضحكون ولكني أحيانًا أقول لنفسي يمكن كلامها صحيح أو أنه مريض.

ـ قد يكون مريضًا يا أم إبراهيم.. ألم أمرض خمسة أيام بعد رجوعي من الإسكندرية؟!

ـ مرضت وشفيت لأنك كنت تسمع كلامي أما هو فلا يسمع، وأكله أقل مما تأكله البنت لوزة، فكيف يسترجع عافيته وهو لا يأكل؟!

حاول سعيد أن يطمئنها فقال لها إن عرابي خسر الحرب، وإن أبو إبراهيم حزين لذلك وحزين أيضًا لأنه من المؤكد أن له زملاء ماتوا في الحرب. ولكن حتى الحزن يخف مع الوقت، وحدثها سعيد لأول مرة عن الولد محمود ، كيف ذهب وكيف بحث عنه ولم يجده، فصارت أم إبراهيم تبكي وتمسح دموعها في كمها.

وكان سعيد يعرف أن كل ما قالته أم إبراهيم صحيح، كان يرى كل يوم كيف يضيق أبو إبراهيم بأولاده ويزجرهم ويضربهم، صحيح أنه كان يترفق به ويميزه عنهم في المعاملة إلا أن وجوده في البيت أضفى على من فيه جهامة لم يعرفها سعيد في غيابه. حتى جلسات السمر والضحك المسائية توقفت؛ لأنهم كانوا يخشونه.

مرة واحدة في شهور طويلة سمع سعيد أبو إبراهيم يضحك، يضحك من قلبه وبصوت عال. كان غائبًا عن الدار وكان الأولاد يغنون، دخل عليهم فتوقفوا، سأل أحدهم:

ـ ماذا كنت تغني يا ولد؟

ـ لم أكن أغني.

ـ بلي، كنت تغني وسمعتك، ماذا كنت تغني؟

تلعثم الولد ثم اعترف:

يا سيمور يا وش القملة

مين قالك تعمل دي العملة

سأله أبوه وهو يبتسم:

ـ هل تعرف من هو سيمور؟

ـ إنجليزي طبعًا!

ضحك أبو إبراهيم وضحك الأولاد لضحكه وتركت أم إبراهيم ماجور العجين وانضمت إليهم وآثار العجين على يديها وضحكت معهم.

وسأله الأولاد:

ـ يعني نغني يا با؟

ـ غنوا.

فغنى الأولاد وهم يدورون في صحن الدار:

يا سيمور يا وش القملة

مين قالك تعمل دي العملة

وعلت أصواتهم عما قبل وزادهم حماسًا أن أباهم كان يضحك، يضحك للمرة الأولى منذ شهور، وعادت أم إبراهيم إلى ماجور العجين وهي تقول:

ـ خير اللهم اجعله خيرًا

* * *

قضي سعيد سنة في بيت أبو إبراهيم كأنه واحد من أولاده ولكن في الشهر الأخير ألحّت عليه أمه فأصبحت تأتيه في الأحلام، واشتاق للبحر فكان يستحضره بخياله وزاد افتقاده لحافظ وعمّار والجزيرة وأهلها فكان دائم التفكير فيهم. فلما غلبه الشوق ودع أبو إبراهيم وأسرته وقصد السويس ليبحث عن سفينة تبحر جنوبًا.

بكت أم إبراهيم ساعة الفراق وقالت: «كأنك ابن بطني يا سعيد».. وتعلقت به الصغيرتان تريدان الذهاب معه واصطحبه أبو إبراهيم والأولاد حتى بداية السكة الموصلة للسويس. ودعهم وحمل السلة التي ملأتها له أم إبراهيم بعيش خبزته خصيصًا له، ومضى في طريقه.

* * *



(٤)

رجوعيات عمّار

في الشهور الأخيرة كان عمَّار يكثر من التفكير في الماضي، في أمه وأبيه وإخوته الذين لم يعد يذكر لا أسماءهم ولا عددهم. كان يذكر أصواتًا مبهمة كأنها كلام أو همهمات أو أغان تترنم بها امرأة وهي تدير الرحي أو تدق في جرن خشبي، وفضاء يختلط فيه البرتقالي بالأخضر فهل كانت أوراق الموز في توهج الظهيرة أم ثوب أمه أم ثمرة مانجو تناثر قشرها من حوله وهو يلتهمها؟ يمعن عمَّار التحديق فلا يرى إلا ضوءًا تغيم فيه الوجوه وتظل تلح رغم ذلك لأن الموت يقترب وساعة اللقاء تحين، فهل يضيع منهم في الآخرة كما ضاع في الدنيا فيجد نفسه في عالم الأموات وحيدًا لا يتعرف على ذويه.

كان عمَّار في السبعين أو ربما في الثمانين، لم يكن يعرف ولكنه كان يعرف أنه في البدء كان معهم فحملته المركب مع آخرين فصار عبدًا من عبيد سلطان زنزبار. يذكر يفاعته في مزارع القرنفل وكلمات سلطان زنزبار وهو يقدمه إلى السلطان خالد: «هذا عبدي عمَّار خلقه الله جميل الوجه قوي البنية سمهري العود، وثقّفه ـ ولله في خلقه شئون ـ فهو سريع كالسهم ومثله صائب. ضفه إلى جعبتك فهو هديتي إليك».

حمله السلطان عائدًا إلى الجزيرة في المركب. ولم يكن عمَّار يبكي كما في رحلته الأولى بل كان مزهوًا بكلمات سلطان زنزبار وبقرار السلطان خالد أن يجعله خادمه الشخصي.

كم من الوقت انقضى؟ مات خالد وخلفه ابنه الأكبر عليّ الدين الذي قتله أخوه نعمان بعد ذلك واستولي على حكم الجزيرة. وشاخ عمَّار ولم يعد يكلفه أحد بالمهام الكثيرة التي كان يكلف بها من قبل. أصبح عبدًا متقاعدًا يتكئ على عصاه لكي يمشي خطوات معدودة أو يجلس قرب ساحة المطبخ آملاً في أن يبادله أحد الحديث. يتمنى أن يستطيع الذهاب إلى المزارع حيث جموع العبيد فيلتقي بهم ويمضي الوقت في صحبتهم ويلاعب صغارهم ويثرثر مع شيوخهم، ولكن ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله لينزل التلة ويقطع الجزيرة ثم يعود يقطعها ليصعد.

كانوا يحسدونه لأنه الخادم الشخصي للسلطان فلا يضطره ذلك للعمل الشاق في الحقول منذ طلوع الشمس حتى غيابها، ولا يعرّضه لسياط الأمراء الذين يحكمون المزارع ويديرون شئونها. هو أيضًا كان يظن نفسه محظوظًا ولكنه الآن يتساءل إن لم يكونوا هم الأفضل حالاً: يعيشون معًا، يتشاركون الحياة، يتزوجون ويتناسلون ويملئون الأرض حولهم بذريتهم، وهو باق كشجرة وحيدة في أرض قفر عندما يقطعها الموت لا تجد من يخلفها. لو كان له ولد أو بنت، زوجة وأحفاد لانتظر مجيئهم بعد الموت، ومهما طال به الانتظار كانوا سيأتون فلا يكون وحده في الممات كما في الحياة.

«لابد أن أتذكر وجه أمي..لابد» يكرر عمَّار لنفسه وهو يحدِّق في الماضي فلا تأتيه إلا أصوات مبهمة في فضاء يختلط أخضره بالبرتقالي.

رأته آمنة وهي تنقل أجولة الطحين واستغربت جلوسه في المكان في هذا الوقت. كان مسندًا رأسه إلى حجر مغمضًا عينيه نادت عليه:

ـ عمَّار

فتح عينيه:

ـ آمنة؟

ـ صباح الخير.. ما الذي أتى بك في هذا الوقت المبكر؟

ـ كان الحر شديدًا في الليل فلم أتمكن من النوم، هل عاد سعيد؟

ـ لم يعد مع أن سفنًا كثيرة تصل الميناء هذه الأيام وكل يوم أذهب إلى هناك لأسأل.

ـ سيعود لك سعيد يا آمنة، إن شاء الله سيعود، لقد رأيته في المنام.

ولم يكن عمَّار قد رأى شيئًا ولكنه أراد أن يطمئنها.

تركت آمنة جوال الطحين وجلست بجواره:

ـ ماذا رأيت ومتى ولِمَ لم تحك لي؟

ـ الآن وأنا جالس هنا غفوت فرأيت سعيد، هو بعينه، وهل أخطئه؟! كان يصعد التلة وينادي عليك.

ـ لعله في ضيق وينادي.

ـ كان يصعد التلة عائدًا يحمل لك هدية من بلد بعيد، وكان وجهه مبتسمًا وقد أصبح له شارب كالرجال.

ـ أصبح له شارب كالرجال.. هل رأيت ذلك يا عمَّار؟!

ـ والله رأيت يا آمنة!

ولم يستغرب عمَّار أنه أقسم فقد كان يشعر أنه صادق فيما يقول رغم أنه لم يكن قد رأى سعيد في الحلم.

سألها راغبًا في إطالة الحديث بينهما:

ـ قلت إن سفنًا كثيرة تأتي إلى الميناء، أي سفن؟

ـ سفن الإنجليز، إنهم ينشئون محطة شرق الجزيرة وقد بدءوا في بنائها.

ـ محطة؟

ـ محطة لعسكرهم.

ـ ولماذا يعسكر الإنجليز عندنا يا آمنة؟

ـ لا أعرف يا عمَّار!

حيته وقامت لتنقل أجولة الطحين وتبدأ عملها اليومي وظل في مكانه آسفًا لذهابها.

آمنة تشبه أمها ولو تاه عقله عن الزمن لقال إن من كانت تجلس بجواره هي مليحة وليست ابنتها، مليحة الوجه ذات الجديلتين وطابع الحسن والوجه الصبيح. يمشي وراءها فتقول: «ارجع يا عمَّار» فيجيبها: «كيف أرجع يا مليحة؟!» فتضحك وتقول: «ارجع!» لكنه لم يرجع حتى بعد أن تزوجت وأنجبت، حتى بعد أن ماتت، فكيف يرجع وإلى أين؟! «هل تقبلين الزواج مني يا مليحة؟» «وهل في الجزيرة من يفضلك يا عمَّار؟».. ذهب إلى السلطان وطلب منه أن يعتقه ليتزوجها: «اعتقني وسأبقى لك عبدًا مدى الحياة» لو كان والده السلطان خالد على قيد الحياة لوافق فقد كان أقل قسوة، وهذا السلطان حمله على ظهره وهو صبي وركض به من القلعة إلى الميناء ومن الميناء إلى القلعة والولد يحيط عنقه بساقيه ويهزه بهما كأنه يركب حصانًا، يضحك فتتردد ضحكاته المجلجلة في التلة كلها. حمله على ظهره طفلاً وقص عليه الحكايات وحمَّمه بيديه وسكب ماء

الورد على جسده قبل أن يدخل بأول امرأة في حياته. كلب جحود ينكح ما لا حصر له من النساء ويملك الجزيرة ومن عليها ويضن عليه بامرأة واحدة. مليحة التي ملكت قلبه وحرمه نعمان منها حين رفض أن يعتقه.

وعندما مات عبد الله زوج آمنة وتركها صبية وحيدة وسعيد رضيعًا بين ذراعيها راودته فكرة الزواج منها، طلب من صاحبه جعفر عبد القاضي أن يسأل سيده إن كان يجوز للرجل أن يتزوج ابنة زوجته فنبهه جعفر إلى أنه لم يتزوج مليحة وأن آمنة ليست ابنة زوجته «آمنة تجوز لك يا عمَّار.. ولكن هل يعتقك السلطان؟» لم يكن يفكر أن يطلب من السلطان أن يعتقه.. لو قبلت آمنة سيأخذها مع سعيد على مركب صيد ويهرب بها من الجزيرة وسلطانها الجحود الذي نسي أنه كان يحمله على كتفيه ويركض به كالحصان، ولكنه لم يهرب ولم يعرض على آمنة الزواج، رأى في الحلم مليحة متجهمة الوجه فعرف أنها لا تريد، وأنه لا يجوز للرجل أن يتزوج من ابنة زوجته.

رأى آمنة تخرج من ساحة المطبخ عائدة إلى بيتها:

ـ آمنة..

ـ أما زلت جالسًا هنا يا عمَّار؟

ـ استعذبت النسيم فبقيت.

ـ ولم تتناول شيئًا منذ الصباح؟

ـ لست جائعًا.

جلست بجواره وفتحت منديلها وأعطته أحد الرغيفين:

ـ لا بد أن تأكل، ستزداد وهنا إن بقيت بلا طعام.

ـ عندما يعود سعيد يا آمنة زوجيه.

ـ أزوجه؟!

ـ هل تريدين أن يبقى مثلي مقطوعًا بلا زوجة ولا أولاد؟

ـ ولكن سعيد صغير يا عمَّار.

ـ ليس صغيرًا لقد رأيته في الحلم وقد اخضر شاربه.

ـ احك لي عن الحلم يا عمَّار.

ـ قلت لك ما رأيت.

ـ قل أكثر.

ـ كان يحمل لك هدية.

ـ هل رأيتها؟

ـ لم أتحقق، كان يقبض عليها بيده، هل تذهبين لزيارة قبر مليحة يا آمنة؟

ـ في العام الماضي ذهبت.

ـ اذهبي لزيارتها يا آمنة.

ـ سأذهب يا عمَّار.

عاونته على القيام واصطحبته في جزء من الطريق ثم استدارت لتنزل التلة ومضى عمَّار قاصدًا حجرته بقبو القلعة حيث يقيم مع خدم السلطان، وكان يفكر وهو يمشي ببطء متكئًا على عصاه أن الأموات يحتاجوننا كما نحتاجهم، إن لم نوافهم بالسؤال يثقلهم الحزن وتركبهم الوحشة، وهو لا يستطيع زيارة قبر أمه وأبيه إذ لا يعرف بأي أرض دفنا. فهل يا ترى يذهب إخوته إليهما ويسألون عنهما فيبددون شيئًا من وحشتهما أم أن مراكب أخرى حملتهم؛ ليصيروا عبيدًا في البلاد، مقطّعين كأغصان الشجر؟

* * *

(٥)

الحمامة المطوّقة

سمعت من يهمس باسمها ولما حدقت في الظلام جهة الصوت تعرّفت على ابن عمها حافظ واستغربت أن ينادي عليها همسًا ولا يقترب حيث كانت تجلس تضفر جريد النخل في ضوء القمر، قامت إليه.

ـ ماذا دهاك يا حافظ؟! تقف متحجرًا كالأصنام وتفح كالأفاعي.. تـ.. و.. دُّد.

قلدته ساخرة ولكنه لم يضحك.

ـ تودُّد هل تحفظين سرًا؟

ـ أي سر؟

ـ اقسمي أن تحفظيه فأقول لك.

ـ سأحفظه.

مد حافظ يده إلى جيب جلبابه وأخرج ورقة مطوية:

ـ أريدك أن توصلي هذه الرسالة إلى شخص في المزارع وتحفظي سرها فلا تخبري أحدًا بأمرها.

ـ من كتب الرسالة؟

لم يكن حافظ يقرأ ولا يكتب.

ـ شخص لا تعرفينه.

ـ وما الذي فيها؟

ـ لا أعرف.

ضحكت مستنكرة...

ـ يا تودُّد هذه رسالة مهمة وليس في نساء الحي من هي أجدر منك بنقلها.

سُرّت للإطراء.

ـ هل تمزح؟

ـ لا أمزح.

ـ إذن قل لي ما المكتوب في الرسالة فأحملها.

ـ لا أعرف.

ـ ولماذا لا تحملها أنت؟!

ـ لأن ذهابي إلى امرأة من نساء العبيد في المزارع يثير الشكوك.

ـ أي امرأة؟

ـ التي تحملين لها الرسالة.

ـ وهل الرسالة مكتوبة لامرأة؟

علا صوتها وهي تسأل فبدا لحافظ أنها تحتج وتستنكر.

ـ وهل تعرف هذه المرأة القراءة؟

ـ لا أعرف.

حاكته تودّد بنفاد صبر:

ـ «لا أعرف!» لن أحمل الرسالة، ابحث لك عن بغل يحملها! تركته وعادت إلى مكانها وجلست تضفر جريد النخل بانهماك كأنه لا يقف على بعد أمتار في انتظار استكمال الحديث.

سمعت خطواته تقترب، لم ترفع عينيها، جلس بجوارها صامتًا.

ـ ما اسم المرأة.

أخبرها.

ـ هل يعشقها صاحبك؟

ظل صامتًا.

ـ هل فقدت النطق؟!

ـ لو قلت لك لا أعرف ستغضبين. لم يقل لي صاحبي إنه يعشقها. ربما يعشقها، ربما لا يعرفها، ربما سمع عن مهارتها في خلط الأعشاب الطبية فأراد وصفة له أو لأمه أو لأبيه، وقد لا تكون الرسالة موجهة إليها بل لابنها أو أخيها أو زوجها. لا أعرف!

ـ هات الرسالة.

ناولها الورقة المطوية ووصف لها الطريق ونبهها إلى ضرورة الحذر ثم قال لها وهو يضحك:

ـ عندما أذهب إلى الهند سأحضر لك فيلاً أبيض مكافأة لك!

ضحكت تودُّد وهي تراه يبتعد، كان حافظ يكرر ما درجت هي على قوله له وهو طفلٍ صغير. كان في الرابعة أو الخامسة وكانت قد تجاوزت

العاشرة تقول له: «لو حسن سلوكك وسمعت الكلام أحضر لك فيلاً أبيض من الهند».. فيسألها: «وكيف تذهبين إلى الهند يا تودُّد؟» فتجيبه بثقة: «سأذهب إلى الهند والسند وما أبعد منهما. وسترى بعينيك حين أعود من السفر محملة بالعجائب». كانت تحلم بالسفر إلى البلاد البعيدة، ولم لا تحلم وباب كوخها يفتح على موج البحر العالي والسفن تأتي وتروح والملاحون من حولها يملئون الجزيرة بما رأوه في أسفارهم ولديهم من الحكايات ما يصبغ الأيام والليالي بألوان أبهي من ألوان الشروق؟!

كانت تحلم إلى أن كان اليوم الذي عزمت فيه أمرها فاختبأت خلف شجرة وقصت شعرها ولبست جلبابًا لأخيها ثم ذهبت إلى الميناء وقابلت ربّان سفينة مدعية أنها صبي يبحث عن عمل. قال لها الربان: «أنت صغير ياولد، عد بعد عامين أعطك عملاً». وقبل مرور العامين حدث ما لم يكن في الحسبان نهض ثدياها واستدار ردفاها ولم يعد بإمكان أي بحار وإن كان كليل البصر أن يخطئ كونها صبية.

آمنة تستغرب حب الرجال للبحر وهي تستغرب استغراب آمنة فما الذي يحبه الإنسان في جزيرة تطبق عليها شواطئها كالطوق والبحر من وراء الشواطئ يموج ويمتد إلى بلاد الدنيا الواسعة؟!

تطلعت إلى الورقة المطوية بين يديها ثم خبأتها في صدرها وقامت. دخلت الكوخ على أطراف أصابعها وتلمست طريقها في الظلام بين أهلها النائمين وأتت بالصندوق وعادت إلى مكانها في ضوء القمر.

فتحت الصندوق وأخرجت منه الكتاب، تحسست غلافه بكفها ثم فتحته وراحت تمعن النظر في سلاسل الحروف المتشابكة في انتظام وانسياب. أطالت التحديق وكأنما ستكشف لها السطور في نهاية المطاف عن جوهرها المكنون.

كانت أمها تتردد على بيت القاضي، يضعون أمامها أكوامًا من الملابس، ملابس القاضي وابن القاضي وزوجة القاضي وبنات القاضي. تنحني أمها على طست الغسيل تفرك الملابس وتدعكها حتى يصير ماء الطست بلون تراب السكة. وتجلس تودُّد بالقرب منها تثرثر حينًا وتحلم حينًا وتشكو الضجر حينًا وتنتظر أن تفرغ أمها لتحمل الملابس مشطوفة ومعصورة وتنشرها على الحبال المشدودة في ساحة خلفية للبيت.

لمعت الفكرة في رأسها يوم رأت زوجة القاضي وبناتها يخرجن من البيت. انسلت تودُّد من مكانها وذهبت للفرجة. دلفت إلى قاعة فسيحة مغطاة بأبسطة ناعمة كالحرير أحست بملمسها قدماها الحافيتان، أبسطة جميلة تتعرج ألوانها الزاهية وتلتف في نقوش غريبة. تطلعت إلى الأبسطة ثم تطلعت إلى السقف. لم يكن كسقف الأكواخ يعلو الرأس بشبرين أو ثلاث بل كان شاهقًا لا تطوله يد عملاق يقف على كتف عملاق مثله. حتى الثريا المشدودة بسلاسل حديدية والتي كانت تتدلى من السقف كانت أيضًا عالية جدًا لا تطالها اليد. تطلعت تودُّد إلى الأبسطة ثم تطلعت إلى السقف ثم دارت بعينيها تستكشف الأرائك المغطاة بالوسائد والزرابي والخزائن الخشبية المطعمة بالصدف.

ثم سمعت الصوت الرخيم، لم يكن ما يقرأ قرآنا ولكنه كان يقرأ. مشت باتجاه الصوت وشاهدت عبر الباب الموارب القاضي يجلس متربعًا على أريكة وبين يديه كتاب يقرأ منه على ابنه. رأت جانبًا من جدران القاعة تغطيها أرفف تحمل كتبًا كثيرة مغلفة بأغلفة جلدية سوداء وخضراء وزرقاء وحمراء، كعوبها منقوشة بنقوش ذهبية آسرة، أخذتها القراءة حتى نسيت أمها ووجه القاضي المجدور وعينه العوراء التي تخيفها.

وقفت تنصت إلى أن سمعت نداء أمها فهرولت إليها حتى لا ينتبه القاضي إلى وجودها.

قضت اليوم كله تفكر حتى هداها عقلها إلى حيلة راحت تستعيدها طوال الليل حتى سمعت صياح الديك فخرجت متلصصة من الكوخ. وقفت وراء شجرة قريبة من بيت القاضي حتى رأته يخرج لصلاة الفجر وتسللت إلى الدار ودخلت إلى القاعة التي كان يجلس فيها في اليوم السابق. كان المكان معتمًا فلم يكن بإمكانها رؤية الكتب ولا تحسسها. اختبأت تحت الأريكة وراحت تنتظر.

غلبها النوم ولم تنتبه إلا على صوت جارية تنظف المكان. كتمت أنفاسها وواصلت الانتظار. أذن المؤذن لصلاة الظهر ومر وقت ثم سمعت خطوات القاضي تقترب وأحست بثقل جسمه وهو يجلس على الأريكة. ورغم الظلام الدامس وبرودة الرخام وصعوبة وضعها المنبطح، لم يكن يزعجها سوى ضربات قلبها المسموعة وخشيتها من أن تصل إلى أذني القاضي الذي كان يجلس فوق رأسها مباشرة.

حكى القاضي لابنه عن حمامة يقال لها المطوّقة ـ وكانت سيدة الحمام ـ وقعت هي وصويحباتها في شباك الصياد. قرأ القاضي: «وجعلت كل حمامة منهم تضطرب على ناحيتها وتعالج الخلاص بنفسها. فقالت المطوّقة: لا تخاذلن في المعالجة، ولا تكن نفس كل واحدة منكن أهم إليها من نفس صاحبتها، ولكن تعاونَّ فلعلنا نقلع الشبكة فينجي بعضنا بعضًا. ففعلن ذلك فانتزعن الشبكة حين تعاونَّ عليها وطرن بها في علو السماء».

ـ أبي أريد التبول؟

وهل هذا وقت التبول؟! توقف القاضي وذهب الولد.

أحمق وسخيف وصوته نحاسي مزعج، قطع القراءة الرخيمة وخيط الحكاية الجميل. كان الغيظ يملأ صدر تودُّد وإن بقيت على حالها بلا

حراك تحت الأريكة. وهذا الولد الغبي، كيف تراوده نفسه الذهاب إلى بيت الخلاء ومصير المطوّقة معلق في الحكاية؟!

وأخيرًا عاد الولد وواصل القاضي. طارت المطوقة حاملة الشباك مع صاحباتها إلى أن وصلن إلى الجرذ صديق المطوّقة. قرأ القاضي:

ـ «فنادته المطوّقة باسمه ـ وكان اسمه زَيْرَك ـ فأجابها من الجحر وقال: من أنت؟ فقالت: خليلتك المطوّقة. فخرج إليها مسرعًا فلما رآها في الشبكة قال لها: يا أختي، ما أوقعك في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟ قالت له: أما تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو محتوم على من يصيبه، بأيامه وعلله ومدته، وكنه ما يبتلى به من قلته وكثرته. فالمقادير هي التي أوقعتني في هذه الورطة، ودلتني على الحب، وأخفت عليّ الشبكة حتى لججت فيها وصويحباتي».

واصل القاضي: «ثم إن الجرذ أخذ في قرض العقد التي كانت فيها المطوقة، فقالت له: ابدأ بتقريض سائر عقد الحمام قبلي وانصرف إليَّ.. فأعادت ذلك عليه مرارًا ـ كل ذلك لا يلتفت إلى قولها ـ فلما ألحت عليه قال لها: قد كررت عليّ هذه المقالة كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا ترين لها عليك حقًا. فقالت له المطوقة: لا تلمني على ما سألتك: فإني قد كلفت لجماعتهن بالرياسة، فحق ذلك عليّ عظيم. وقد أدين إليّ حقي في الطاعة والنصيحة، بمعونتهن وطاعتهن. وبذلك نجانا الله من الصياد. وإني تخوفت ـ إن أنت بدأت بقطع عقدتي ـ أن تمل وتكل ويبقى بعض من معي وعرفت أنك إن بدأت بهن وكنت أنا الأخيرة لم ترض ـ وإن أدركك الكلال والفتور ـ حتى تخلصني مما أنا فيه. فقال لها الجرذ:

ـ وهذا أيضًا مما يزيد أهل مودتك فيك رغبة، وعليك حرصًا وأخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها، وانطلقت الحمامة المطوقة والحمام راجعات إلى أماكنهن.

ـ أبي جعت.

ـ ألا تنتظر حتى أقرأ عليك كيف تعرّف الغراب على الجرذ وما دار بينهما.

ـ بطني يوجع من شدة الجوع.

ـ إذن نكمل بعد غد.

انتظرت تودُّد حتى خرج القاضي وابنه وتسلّلت إلى خارج البيت وما إن ابتعدت حتى راحت تتقافز راقصة وتركض وتغني. ولما التقت بسعيد وحافظ قالت إنها ستصنع لكل منهما سلة صغيرة من الجريد، فجلس الولدان حولها مبهورين وهي تضفر أوراق النخيل بسرعة ومهارة.

وبعد يومين أعادت تودُّد الكرة واختبأت تحت الأريكة ولم يبد الوقت طويلاً كالمرة السابقة إذ قطعته باستعادة ما سمعته من الحكاية. ترى ما الذي يحدث بعد ذلك، وأي صداقة تلك التي تنشأ بين الغراب والجرذ وما الذي سيفعلانه؟!

تمنت أن تطول الحكاية ولا تنتهي حتى لو قضت كل أيامها التالية قابعة تحت الأريكة.

جاء القاضي وحكى لابنه عن لقاء الجرذ بالغراب وذهابهن معًا إلى السلحفاة، وكانت تودُّد التي شدها خيط الحكاية في المبتدي يأسرها الآن حديث الحيوانات التي تنطق بالحكمة وتضفر كلامها بمهارة مدهشة تفوق مهارتها في ضفر جريد النخل.

حكى الجرذ همومه للسلحفاة فنصحته بأن يتناسى اغترابه ووحشته قالت: «استعمل علمك ولا تحزن لقلة مالك فإن الرجل ذا المروءة قد يكـرم على غير مـال، كالأسد الذي يهاب وإن كان رابضًا، والغني الذي

لا مروءة له يهان وإن كثر ماله، كالكلب الذي يهان وإن طوق وخلخل. ولا تكبرن في نفسك اغترابك؛ فإن العاقل لا غربة عليه ولا وحشة ولا يتغرب إلا ومعه ما يكتفي به من علمه ومروءته، كالأسد الذي لا يتقلب إلا ومعه قوته التي بها يعيش حيثما يتوجه».

وسمع الغراب كلام السلحفاة وراح يتحدث معها. ولم تتمكن تودُّد من متابعة كلام الغراب إذ كانت تجتهد لكتم عطسة تهدد بفضح أمرها. كتمت العطسة وتنفست في ارتياح واستعدت لمعرفة ما الذي حدث عندما أقبل على الغراب والجرذ والسلحفاة ظبي يسعى، فإذا بالعطسة تفلت منها فيرتج جسدها ارتجاجًا ويصطدم رأسها بقاع الأريكة التي يجلس عليها القاضي.

وجدت تودُّد نفسها منبطحة على الأرض لا تجرؤ على تحريك يدها لفرك ذلك الجزء المؤلم من رأسها. رُفعت الأريكة من مكانها، ورأت تودُّد مركوب القاضي بحذاء رأسها، ورفعت عيناها ببطء من المركوب إلى القفطان ومن القفطان إلى الرأس فالتقت بعين القاضي المبصرة. انتفض جسدها هلعًا وهبت واقفة بغية الهرب ولكن يد القاضي كانت تمسك بتلابيبها.

ـ من أنت وماذا تفعلين هنا؟

انعقد لسانها. صفعها القاضي صفعتين كادتا تطيحان برأسها، وقبل أن يهوي بكفه للمرة الثالثة أفلتت من يده وأطلقت ساقيها للريح.

في اليوم التالي ذهبت إلى عمَّار وطلبت منه أن يحكي لها حكاية الحمامة المطوقة.

ـ حكاية الحمامة المطوّقة؟!

ـ إنها قصة كان يقرؤها القاضي على ابنه من كتاب يملكه.

ـ ولكني يا تودُّد لا أعرف شيئًا من القصص المكتوبة في الكتب.

سلت دموعها حتى ارتج جسدها من شدة البكاء، حايلها عمَّار، وأعطاها قطعة سكر وحاول أن يحكي لها حكاية أخرى ولكنها استمرت في البكاء.

وظل قلبها مشتعلاً مختنقًا بالحسرة حتى أتتها فكرة شرعت في تنفيذها ما إن سمعت صياح الديك، تسللت إلى بيت القاضي وانتظرت خروجه لصلاة الفجر وسرقت كتابًا وطارت بغنيمتها عائدة إلى الكوخ.

جلست بالباب تتأمل مغلفه الجلدي الأزرق يجلله إطار من النقوش الذهبية يتوسطه رسم الكلمات يستقيم ويميل ويصعد ويهبط في انسياب جميل. لم تكن تعرف إن كان هذا الكتاب هو الذي تضم صفحاته حكاية المطوّقة ولكنه كان كتابًا كبيرًا وجميلاً، وكانت سعيدة به.

أخرجت تودُّد الرسالة المطوية من صدرها ونشرتها على صفحات الكتاب المفتوح وتملتها. لم تكن سلاسل المخطوط فيها مستقيمة ومنسابة كالسطور المرسومة في الكتاب. حدقت فيها وتمعنت. ترى ما هو المكتوب في الرسالة التي ستحملها في الغد إلى المزارع؟

لم تقبل حمل الرسالة حبًا في حافظ، على محبتها له، بل كان توقها للاستطلاع والمعرفة هو السبب. فما هي حكاية هذه المرأة؟ هل هي شابة أم عجوز؟ هل تعرف القراءة والكتابة ومن علمها وكيف؟ ليس في الجزيرة كلها من يقرأ إلا بنات السلطان؟ حتى بنات القاضي لم يتعلمنها.

ثم إن حافظ قال إن الرسالة مهمة وإنه لم يجد من نساء الحي من هي أجدر منها بحملها. سرها كلام حافظ وسرتها ثقته في قدرتها على توصيل الرسالة بنجاح، وإن وقع ما لا يحمد عقباه؟ لم يقلقها ذلك. ستتصرف بما يمكنها من الخروج من المأزق.

طوت تودُّد الرسالة وأعادتها إلى صدرها ومسحت الكتاب بطرف ثوبها وأودعته الصندوق ثم حملته إلى الكوخ وأعادته إلى مكانه.

تمددت على الحصيرة بجوار أهلها النائمين، وظلت تتابع هدير البحر فحملها خيالها تارة إلى جرذ ماهر يقرض شبكة هائلة وقع فيها سرب من حمام، وتارة إلى خطواتها الحذرة لتسليم رسالة لا تدري المخطوط فيها إلى امرأة تجهلها.

* * *



(٦)

عـودة الغـائب

ركب سعيد سفينة هولندية تتوقف في عدن في طريقها إلى إفريقيا الجنوبية. وبدت له الرحلة طويلة وموحشة ولم يكن على متن السفينة من يتحدث العربية سوى ملاح يوناني يعرف منها كلمات معدودة.

ولما وصل سعيد عدن كان عليه الانتظار لعدة أسابيع قبل أن يجد مركبًا تحمله إلى الجزيرة، ولكن الانتظار لم يكن بصعوبة الرحلة إذ كان بإمكانه الحديث مع الناس ومشاهدة المدينة والتجوال في أسواقها.

ثم وصلت سفينة عُمانية عائدة من الشمال وجهتها زنزبار ثم مسقط.. تحدث سعيد مع بحارتها فتوسطوا لدى قبطانها الذي قبل أن يعمل سعيد عليها ويوصلوه إلى الجزيرة. وقضي سعيد أوقاتًا طيبة برفقة البحارة العُمانيين الذين كانوا يجلسون للتسامر كل ليلة، فيحكون النوادر والطرف ويتحدثون عما شاهدوه من عجائب في الموانئ الأوروبية، وأحوال عُمان بعد أن خلت خزائن الدولة وركبتها الديون، وما سمعوه من البحارة الأفارقة عن الفظائع التي يرتكبها الأوروبيون في البلاد التي يحتلونها.

ـ وأنت يا سعيد ماذا لديك؟

ـ كنت في الإسكندرية عندما ضربها الإنجليز، رأيت بوارجهم وهي تضرب الطوابي وتدمرها، ورأيت الأهالي وهم يلعنونهم ويدعون لعرابي بالنصر.

ـ وهل عرابي حاكم مصر؟

ـ لم يكن حاكم مصر ولكن أهلها يحبونه. كان قائد جيشها وهو الذي حارب الإنجليز ولكنه هزم فاحتل الإنجليز مصر ونفوه.

ـ حكى لي بحار إفريقي عن حوار دار بين أهل قريته والمبشر الفرنسي الذي جاء إلى القرية واستقر بها.

قال: «حدثنا المبشر لساعات طويلة عن جمال بلاده وروعتها وطيب الحياة فيها، فقلنا له كلامك لا يمكن أن يكون صحيحًا فلو أن الحياة في بلادكم جميلة كما تصف لما جئتم إلينا هنا وضايقتمونا بهذا الشكل. قال المبشر محتجًا: ولكننا لا نزعجكم. جئنا لنساعدكم ونعلمكم. قال أهل القرية: هل تساعدونا في بناء أكواخنا؟ قال المبشر: لا. قالوا له: هل تزرعون لنا الأرض؟ قال المبشر: لا. قالوا له: هل تصنعون لنا الرماح التي نحمي بها أنفسنا من الحيوانات المفترسة؟ قال المبشر: لا ولكننا نصنع السفن الكبيرة التي ترونها في الميناء، والبنادق الأكثر فتكًا من الرماح. قال له أهل القرية: حسن، علمونا كيف نبني السفن ونصنع البنادق!».

استغرق البحارة في الضحك ولم يتوقفوا إلا عندما قال أحدهم:

ـ هل تذكرون الأميرة سلمى أخت سلطان زنزبار التي هربت مع ضابط ألماني وتزوجته؟

ـ هذه حكاية قديمة.

ـ الجديد فيها أنها عادت لزيارة زنزبار في حماية سفينة حربية ألمانية، وقال لي بحار من أهل زنزبار إنها نزلت الجزيرة سافرة كنساء الإفرنج

ترتدي ثيابًا كالتي يلبسنها وقبعة مزينة بالريش، تجولت في الجزيرة وتحدثت مع الناس وزارت من أرادت.

ـ وماذا فعل أخوها؟

ـ وقف مكتوف اليدين ويكظم غيظه فقد جاءت إلى الجزيرة كمواطنة ألمانية عالية المكانة.

البحارة يقولون إنها تساعد الألمان وهم يستشيرونها أما أخوها السلطان بَرْغَشْ فيخدم الإنجليز ويتبعهم، ومن يدري لعله خائف أن يستولي الألمان على جزيرته وينصبونها حاكمة على زنزبار بدلاً منه.

ـ سبحان الله.

ـ هل تذكر ذلك القواد الذي كان يأتي بالغلمان للقباطنة؟

ـ بَرْغَشْ؟

ـ هو بعينه.. رأيته في الميناء في عدن فناديت على حمود وخليل ومحمد وأشبعناه ضربًا حتى كاد يموت بين أيدينا.

قال حمود:

ـ والله لو لم يمنعني خليل ومحمد لما تركته إلا جثة هامدة.

التفت حمود إلى باقي الجالسين وقال موضحًا:

ـ أنتم لا تعرفون حكايته، هذا الرجل كان قوادًا إن توزع نتانة خلقه على بلد تملؤها بالعفن. قبل عشر سنوات كنا على سفينة كهذه نعمل بما يرضي الله فيقدمون لنا طعامًا فاسدًا ترى الدود بعينيك يخرج منه. قلنا لن نأكل ولن نعمل إن لم تغيروا الطعام، ولما لم يستجيبوا لنا قررنا أن نستولي على السفينة. أعددنا كل شيء: الحبال لتقييد الضباط والعصي

والسكاكين للدفاع عن أنفسنا واتفقنا كيف ومتى نبدأ. وكان كل البحارة معنا، فجميعهم كان يقهرهم التفكير في أنهم يعملون على سفينة تحمل أطنانًا من المتاع الثمين ولا يقدم لنا سوى ما يعافه الكلاب.

سأل سعيد:

ـ واستوليتم على السفينة؟

ـ الكلب بَرْغَش هو الذي حال دون ذلك.

ـ كيف؟

ـ وشى للقبطان فقبض على قادتنا وأُعدموا رميًا بالرصاص وحكم على كل واحد منا بخمسين جلدة.

قال سعيد:

ـ أنا مع محمود لو كنت معكم ورأيت برغش هذا لما تركته حيًا إن لم يكن ثأرًا لزملائكم الذين قتلوا فللخمسين جلدة.

قال بحار مسن:

ـ أنتم شباب تجري الدماء الحارة في عروقكم، ولكن عندما يتقدم بكم العمر ستعرفون أن الإنسان لا يفعل دائمًا ما يتمنى، وأن الشر من حوله أقوى منه ولا يملك الانتصار عليه. الله وحده هو المنتقم.

ولكن سعيد أصر في عناد:

ـ ولكن الإنسان لا يترك حقه ولو صدق كلامك لكان عرابي على خطأ حين حارب الإنجليز.

ـ ولكنه هزم يا بني.

ـ لكنه حاول يا والدي.

ضحك أحد البحارة وقال:

ـ سنسميك المصري يا سعيد!

ضحك سعيد وقد أعجبته التسمية.

* * *

تعلقت عينا سعيد بنقطة متعاظمة في الأفق حتى لاح له النخل الأليف والتلة الصخرية والشواطئ تلتوي وتتعرج في لقائها القديم بالبحر.

الأرض تقترب وسعيد يتطلع والنوارس تنثر أبيضها في زرقة السماء والبحر.

ثم رست السفينة وغادرها سعيد وفي يده السلة التي كانت أم إبراهيم قد ملأتها له بالخبز، أودع فيها جلبابين ومركوبًا ورطلين من البن اشتراهما من عدن والهدية التي حملها لأمه من مصر.

التقي صبيّة تلعب بالقرب من البيت، سألها:

ـ هل آمنة بالدار؟

ـ من أنت ولماذا تسأل؟

ـ أنا سعيد.

حدقت فيه ثم ابتسمت:

ـ لم أعرفك، ألا تعرفني؟!

ثم قالت له اسمها واسم أبيها وأمها فضحك.

ـ طبعًا لم أعرفك عندما سافرت كان طولك ثلاثة أشبار فأصبح طولك مترًا.

ضحكت البنت وقالت له وهي تركض مبتعدة:

ـ سأذهب لإخبار أمك.

تطلعت آمنة إلى البنت باستغراب كأنها تنطق بلغة غير مفهومة، مرت ثوان ثم انطلقت كالسهم.

كيف قطعت آمنة الطريق؟ من رأت في طريقها؟ هل حدّثها أحدهم وسألها لماذا تركض؟ هل أجابته وبماذا أجابت؟ هل ركضت معها البنت أم ظلت بالمطبخ؟ لا تملك الإجابة فهي لا تدري، ومن لمحها في الطريق لم ير منها سوى ساقين تركضان وجديلتين تتطايران في الريح وصوتها ينادي على سعيد فيتردد الصدى في جنبات التلة.

سمع سعيد الصوت فركض في اتجاهه ثم رآها فجرى أكثر، احتضنته وبكت. قبلت رأسه وجبينه وكتفيه، ابتعدت خطوتين وتأملته ثم عادت تضمه إلى صدرها. سحبته من يده داخل الكوخ وأجلسته بجوارها قالت: «ازددت طولاً يا سعيد، واعرض منكباك وخط شاربك كالرجال». وضحكت وضحك.

أحضرت مركوبه القديم وجلبابه ـ كعادتها كانت قد غسلته وطوته ووضعته تحت فراشه ـ لم يتجاوز الثوب ركبتيه ولم يدخل المركوب إلى نصف قدميه. كانت تضحك وكانت تبكي، كانت تقوم وتقعد، كانت تلمسه وتتأمله وتسأله ويشرق وجهها ويغيم، يتورد ثم يشحب ثم يعود يتورد.

هرولت إلى الجارة واستدانت مقدارًا من طحين وأوقدت نارًا وراحت تخبز له فطيرة.

تأملها سعيد وقال: «ازددت جمالاً يا آمنة».

تطلعت إليه وقد اكتسى وجهها بابتسامة حيية أكدت طابعي الحسن على وجنتيها، قالت: «هدني بعدك يا سعيد».

سألته عن رحلة الذهاب، سألته عن رحلة العودة، سألته أين عاش وكيف عاش، سألته إن كان يحتفظ بالحجاب الذي صنعته له.

ظلت جالسة لصقه تتابع حديثه حتى سمعت ديك الجارة يصيح فأصرت أن ينام ـ رقد على فراشه فأحكمت الغطاء على جسمه وجلست بجواره تتطلع إلى وجهه المستسلم للنعاس ثم قامت لتذهب إلى عملها.

كان سعيد يتابعها بعينيه وهو بين اليقظة والنوم يتأمل ملاحة وجهها وطول قدها النحيل وشعرها الأسود المضفور كأذناب الخيل.. رآها بهية ومشرقة يضيء وجهها الشال البرتقالي الذي اشتراه لها من مصر وفرحتها باللقاء.

ابتعدت آمنة خطوات ثم عادت وقد تذكرت عمَّارًا «هو الذي بشرني يا سعيد، هو الذي رأى عودتك في المنام، سأخبره أنك عدت وأقول له إنك ستذهب لزيارته». ثم مضت يغطي الشال البرتقالي رأسها وينسدل حتى منتصف ظهرها.

لم ينم سعيد بل خرج يمشي في الجزيرة. بدأ بالذهاب إلى شاطئ الصيادين للسؤال عن حافظ فأخبروه أنه خرج للصيد. التقى بالعديد من الصيادين الأكبر سنًا، عرفهم واستغرب أنهم لم يعرفوه. كان يكرر: «أنا سعيد، سعيد بن آمنة الخبازة!»، فيضحكون بدهشة ويقولون: «كبرت يا سعيد. صرت تشبه جدك، كيف لم نتعرف عليك؟!».

تركهم سعيد وسار جنوبًا حتى وصل إلى بساتين النخيل ثم تجاوزها إلى الحقول، ولكنه لم يقترب أكثر فقد كان يعرف أنه محظور على غير العبيد من المزارعين والأمراء ومساعديهم الذين يديرون المزارع دخولها.

ظل يمشي في سكة محاذية، مر بحقول القطن والذرة وحقول القرنفل وبساتين الموز وأشجار الخروب والتمر هندي، ورأى العبيد عن بعد ينحنون على الأرض كما كان ينحني عليها مع عم أبو إبراهيم وأولاده، ثم عاد أدراجه إلى بساتين النخيل وتمدد في ظل نخلة ونام.

استيقظ بعد أن وافت الشمس غروبها فعاد مسرعًا إلى البيت فوجد أمه في انتظاره، قالت:

ـ قلت لنفسي هل كان حلمًا يا آمنة؟ هل غاب عقلك وصور لك قلبك سعيدًا وقد عاد إليك؟ تعال يا سعيد لتأكل لقد خبزت لك فطيرة لم أخبز مثلها في حياتي، عندما عرفت أم لطيف بعودتك أعطتني سكرًا وزبيبًا لكي أصنعها لك.

جلسا يأكلان وكانت آمنة تضحك وهي تحكي له عن عيون النساء التي لم ينزلنها عن الشال.

ـ قالت لي تودّد لو جاءني سعيد بشال مثله أتزوجه في الحال!

ـ هل مازالت معرضة عن الزواج؟

ـ لم أر صبية مثلها، طلبها عديدون ولكنها في عناد البغال! تقول لن أتزوج إلا رجلاً يقرأ ويكتب ويملك كتبًا كالتي يملكها القاضي.

ضحك سعيد.

ـ غدًا قولي لها سعيد صار يقرأ ويكتب ولكنه لن يتزوجك، سيتزوج فتاة من مصر.

ـ تتزوج من مصر؟!

قال سعيد متخابثًا:

ـ فتاة جميلة من الإسكندرية.

وراح سعيد يعيد عليها ما سمعه من الولد محمود عن البنت التي يحبها ويزيد.

ـ كنت أمر من تحت نافذتها كل يوم.. كانت تطل على استحياء وتبتسم، جميلة عن بعد، مليحة عن قرب، كلما تطلعت إليها زادت حسنًا، وجهها كالبدر التمام وابتسامتها آه لو رأيت ابتسامتها يا أمي!

كان سعيد يبتسم مستعذبًا اللعبة، ولكن أمه كانت قد توقفت عن الأكل.

ـ تتزوج من مصر وتقيم فيها؟

ـ أقيم فيها وأعمل بالفلاحة كباقي أهلها.

لم يرق الكلام لآمنة فغيرت دفة الحديث.

ـ سألني اليوم عمَّار عنك، متى تذهب لرؤيته؟

ـ غدا سأذهب.

بدأ سعيد يومه التالي بالتوجه إلى التلة. كان يصعد حين اعترض طريقه أحد الحراس.

ـ إلى أين؟

ـ أقصد عمَّارًا خادم السلطان.

ـ هل أنت غريب عن الجزيرة؟

ـ لست غريبًا عنها، فأنا سعيد بن آمنة الخبازة.

ـ مادمت من أهل الجزيرة فكيف لا تعرف أنه ممنوع على الرجال صعود التلة وفيها أقبية المساجين والبيت العالي الذي يسكنه الحريم وقلعة السلطان نفسه؟

ـ ولكني أريد رؤية عمَّار، لقد كنت مسافرًا وطالت غيبتي. عمَّار لم يعد قادرًا على نزول التلة ولا سبيل لرؤيته إلا أن أصعد أنا إليه.

ـ عد أدراجك يا رجل ولا تكن مشاغبًا!

استدار سعيد هابطًا ثم توجه إلى شاطئ الصيادين. لم يكن حافظ قد عاد من رحلته بعد، جلس مع بعض الصيادين يعاونهم في رتق الشباك، ضحك أحدهم معلقًا على سرعته في العمل:

ـ لم تنس يا سعيد!

ـ لم أنس!

سألوه عن رحلته فحدثهم، وسألهم عن أحوال الجزيرة فقالوا له إن كل شيء بقي على حاله منذ ترك الجزيرة، والسلطان في القلعة والعبيد في المزارع لا يمر أسبوع إلا ويقبضون على واحد من رجالهم ويلقون به في الأقبية. ونحن، كما ترى، على حالنا نخرج للصيد ونعود، نعطي السلطان النصف المستحق ونأخذ النصف المتبقي. لا جديد في الجزيرة إلا تلك المحطة التي أقامها عسكر الإنجليز ولكنهم في حالهم في شرق الجزيرة لا يأتون إلينا ولا نذهب إليهم.

بقي سعيد مع الصيادين بعض الوقت ثم تركهم وسار شرقًا ليري تلك المحطة التي حدثوه عنها. ظل يمشي بمحاذاة الشاطئ حتى رأى عمائر مبنية بالحجارة ومطلية بلون رصاصي. لم يكن قد اقترب منها بعد عندما اعترضت طريقه أسلاك شائكة وراءها حراس مسلحون فاستدار راجعًا إلى البيت.

ـ في المساء انهمكت أمه في إعداد سمكتين للعشاء. قال سعيد:

ـ حاولت الصعود إلى التلة لزيارة عمَّار ولكنهم منعوني وقال الحارس إن الرجال لا يسمح لهم بالصعود.

ضحكت أمه.

ـ أصبحت رجلاً يا سعيد وصاروا يخشون اقترابك من بيت الحريم!

لم يضحك سعيد.

ـ ولكني أرغب في رؤية عمَّار فكيف أراه!

واصلت آمنة إعداد السمكتين ولما جلسا للعشاء قالت له:

ـ سأصف لك سكة تمكنك من صعود التلة دون المرور بالبيت العالي أو التفات الحراس، هل تعرف ساحة قطع الرءوس، الساحة التي بالطرف الغربي من الجزيرة؟

ـ أعرفها..

ـ عندما تكون الساحة عن يمينك تجد السكة إلى يسارك، إنها سكة وعرة ومتعرجة ولكنها توصلك، متى تنوي الذهاب؟

ـ غدًا.

ـ سأخبر عمَّار لينتظرك عند نهايتها.

في الصباح توجه سعيد إلى السكة التي وصفتها له أمه، عندما وصل الساحة تذكرها ولم يكن قد اقترب منها منذ كان في الثامنة من عمره، يومها دار المنادي في الجزيرة معلنًا أن الأمير نعمان قد أصبح سلطانًا بدلاً من أخيه عَلِيّ الدين الذي خان الأمانة وتنكر لرباط الدم. قال سعيد لأمه إنه يريد الذهاب للساحة ليشاهد ما يفعله السلطان بأخيه فرفضت قائلة: «لن ترى إلا ما يفزعك ويوجع قلبك، لا تذهب». ولكنه لم يطعها وذهب مع حافظ دون علمها. كانا يريدان الفرجة.

رأى سعيد وحافظ كما رأى الناس المحتشدون، السلطان المخلوع وهم يقتادونه إلى الساحة، مقيد اليدين معصوب العينين ورأى السيّاف وهو يرفع يده ويهوي بالسيف عليه. ورأى الرأس وهي تطير في الهواء وتسقط متدحرجة كحجر. ثم سمع حراس السلطان يعلو صوتهم بالتكبير.

ولم يعد سعيد إلى هذا الطرف من الجزيرة بعد ذلك أبدًا ولم يكن ليفكر في الاقتراب منه لو لم تصف له أمه سكة إلى التلة توصله إلى عمَّار.

ظل سعيد يصعد الطريق المتعرجة حتى رأى عمَّارًا واقفًا في انتظاره، كان جسده قد أصبح نحيفًا إلى حد الهزال وإن بقي ممشوقًا وفارع الطول، احتضنه سعيد ولمعت عيناه بالدموع وهو يتملى الوجه الأبنوسي اللامع والشعر القطني والنظرة الأليفة في العينين.

أجلسه عمَّار بجواره وأخذ يسأله عن رحلته وأنصت لحديثه عن مصر وأهلها الذين يعملون بالزراعة وقائدها عرابي الذي نفاه الإنجليز بعد أن كسروا جيشه وهزموه. كان عمَّار يسمع وعيناه اليقظتان وقسمات وجهه تواكب الحديث، تركض معه وتتباطأ، تبتسم وتضحك، وتغيم بالحزن أو بالعتاب فيستحضر سعيد طفولته وهو يجلس مأخوذًا أمام عمَّار وهو يحكي الحكايات. ولم يكن لسان عمَّار هو وحده الذي يحكي، بل كان وجهه وعيناه كمرآة مسحورة تحيي الكلمات وتطلقها فتكشف المخفي فيها من حزن وفرح وخوف ورجاء.

وعندما أوشكت الشمس على المغيب قام سعيد ليعود إلى البيت فقال له عمَّار وهو يمد يده إلى جيبه:

ـ أتيت لك بهدية.

ضحك سعيد.

ـ قطعة سكر، أليس كذلك؟

فضحك عمَّار.

ـ كبرت على قطعة السكر يا سعيد.

وأخرج يده من جيبه وفتحها فإذا بها دينار من ذهب.

ـ أعطاه لي السلطان خالد رحمه الله حين تزوج ابنه الأكبر على الدبن، لم تكن قد ولدت يا سعيد ولا كانت أمك آمنة قد جاءت إلى هذه الدنيا.

مدّ له عمَّار يده بالدينار.

ـ خذه يا سعيد، خذه لتمهر به عروسك!

* * *



(٧)

القهـوة المحـرمة

وقفت آمنة أمام البيت تحرس الطريق بعينيها فماذا لو مر عابر سبيل فتعرف على الرائحة، أو فاجأهم زائر فرأى بعينيه سعيد وحافظ وهما يحتسيان ما حرمه السلطان؟

أتى بها سعيد عند عودته من السفر وعندما فتحت الكيس ورأت حباتها الخضراء لم تعرف كنهها فسألته.. أجابها.

ـ قهوة.

ـ قهوة؟!

ـ نعم.

ـ ولكنها حرام!

ـ من حرمها؟

ـ القاضي أفتى بذلك وقال: إنها بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. وأعلن المنادي في الجزيرة أن القهوة محرمة بأمر السلطان فاسمها من اسم الخمر وهي مسكرة وسامّة وتلعب بالعقول ومن يتعاطاها يعاقب بمائة جلدة.

ـ ليست حرامًا، في مصر يشربونها وفي عدن يزرعونها ويتاجرون فيها ولم يحرمها إلا سلطان جزيرتنا.

لم يلتفت لكلامها، حمصها وطحنها ودعا حافظ وأوقدا نارًا، ملأ الركوة بالماء وألقماها البن وجلسا ينتظران غليانها وهما يتحدثان والمكان من حولهما يعبق بالرائحة النفاذة.

لم يرق الأمر لآمنة ولكنها قالت لنفسها: إن الصبر طيب ورطلان من البن لن يدوما إلى الأبد. غدًا يفرغ الكيس القماشي فتغسله وتجففه وتحفظ به طحينًا أو تمرًا وتستريح.

لم يكن الكيس فرغ عندما نادتها أم لطيف وانتحت بها جانبًا من ساحة المطبخ وهمست:

ـ كيف حال سعيد؟

ـ بخير والحمد لله.

ـ هل صحيح أنه يحتسي القهوة؟

ـ القهوة؟! لم نسمع اسمها إلا عندما نادى المنادي بأن السلطان حرمها. وسعيد لم يذقها في حياته ولم ير شكلها ولو رآها لما عرف كنهها.

ـ لا تخف عني شيئًا يا آمنة. حافظ ابن أختي ويهمني أمره كما يهمك أمر سعيد. ولقد أسرت لي أختي بما يفعلانه. قالت لي: «سعيد وحافظ يشربان القهوة ويذهبان في ستر الليل إلى مزارع العبيد وقد يكون لهما مآرب في بعض فتياتهم».

ـ يا أم لطيف لم نُدخل القهوة بيتنا ولم يذقها سعيد وهو لا يذهب إلى مزارع العبيد ليلاً. ينام قبلي وأستيقظ قبله، وعندما أقوم في الليل أجده مستغرقًا في النوم فأحكم الغطاء عليه وأعود فأغفو.

ـ ولكن سعيدًا وحافظًا صاحبان لا يفترقان وما يفعله أحدهما يفعله الآخر!

تركت آمنة أم لطيف لتواصل الخبيز وقد انخطف لونها فماذا لو شاع في الجزيرة أن ابنها يتعاطي القهوة فوصل الخبر للسلطان؟

وماذا لو صدق كلام أم لطيف وكان سعيد يقترف الممنوع ويذهب خلسة إلى المزارع ليتسامر مع العبيد؟ وهل يذهب إلى المزارع ليتسامر أم ليضاجع النساء بالحرام؟ وهل يمكن أن يفعل سعيد ذلك؟ هل غيره السفر فعاد بلا عقل وحافظ يتبع خطوه ويقلده أم أن حافظًا هو الذي يدفع به إلى الفعل الأهوج؟!

انتهت آمنة من عملها وغادرت ساحة المطبخ قاصدة بيتها. رأت عمَّارًا جالسًا في ظل شجرة وعيناه مبللتان بالدموع:

ـ ما بك يا عمَّار؟

ـ لا شيء يا آمنة.

ـ ولكنك كنت تبكي؟

ـ غفوت وأيقظني هديل حمامة فبكيت. هل تحبين الحمام يا آمنة؟ لم ينتظر إجابتها.

ـ هل قلت لي: إن سعيدًا تعلم الكتابة؟

ـ تعلمها يا عمَّار.

ـ أريده أن يكتب لي رسالة.

ـ رسالة؟!

ـ سأشتري حمامة زاجلة وأحملها رسالة إلى أمي.

ـ في أي أرض يا عمَّار؟

ـ الحمامة ستعرف طريقها. قولي لسعيد إنني أريده ليكتب لي رسالة.

ـ سأخبره يا عمَّار ولكنني أريد أن أشكوه لك.

جلست بجواره وقد أراحها أن تجد من تفضي له:

ـ سعيد يشرب القهوة يا عمَّار...

ـ القهوة؟!

ـ يشرب القهوة ويذهب إلى المزارع المحرم علينا دخولها.

ـ لا تقلقي يا آمنة، إنه شاب صغير، غدًا يهدأ ويعقل.

ـ لو عرف السلطان بأمر القهوة لأمر بجلده مائة جلدة، وقد يلقي به في الأقبية. ولو وشى أحدهم بأنه يذهب إلى المزارع فالله أعلم ماذا يكون عقابه.

ـ سأنصحه يا آمنة، قولي له أن يأتي إليّ ولا تنسي أن تخبريه أن يدبر قلمًا وورقة ليكتب لي رسالة.

ذهبت آمنة وتركت عمَّارًا جالسًا تحت الشجرة يفكر في الرسالة والحمام وما يفعله سعيد. للشباب كبواته، كان في عمر سعيد يوم سرق رفيق له زجاجة خمر من مخزن أحد الأمراء وشرباها معًا. الطعم لاذع تستغربه ثم تستطعمه ثم يسري في أوصالك ويدفئ قلبك. شربا وضحكا مستمتعين بالحديث واستغفالهما للأمير. ثم شربا أكثر حتى ثقل رأساهما فنام صاحبه، أما هو فبكي وكأنما اجتمعت عليه كل همومه. فهل القهوة كالخمر تحرك القلب وتهزم الروح؟ لم يشرب القهوة في حياته ولم يسمع بها إلا عندما نادى المنادي بتحريم السلطان لها. السلطان حرم عليه الزواج

من مليحة. ولو تبع عمَّار هواه لصعد على أعلى مئذنة في الجزيرة وأعلن أن نعمان كلب جحود، ولكنه يكتم ما في قلبه ويحجبه عن العيون مادام السلطان سلطانًا وهو عبد لا يملك روحه. يضحك للسلطان ويحممه بماء الورد ويلبسه مركوبه وهو يتمنى أن يراه على خازوق فيضحك ملء شدقيه. نعمان كلب جحود والحمام طير عفيف يؤنس الغريب ويدرأ وحشته، يغني لإلفه، يطير معه ويحط معه وإن ذهب الإلف بقي مفردًا كتلك الحمامة على الشجرة تبكي وتُبكيه.

في المساء حكت آمنة لسعيد ما قالته لها أم لطيف، قال:

ـ لم أذهب إلى المزارع إلا مرتين اصطحبني حافظ لزيارة بعض شباب العبيد الذين تعرف عليهم عندما كان يعمل في توصيل السمك إلى بيوت الأمراء في المزارع، جلسنا وتسامرنا وعدنا، هذا كل ما حدث.

ـ لا داعي يا ولدي، السلطان يحرم علينا دخول المزارع، وأنت تعرف لـو وشـى بك أحد يكون عقابك شديدًا، تسمر كما شئت مع الصـيادين ولا داعي للمجازفة.

ـ اطمئني يا أمي، لن أذهب ثانية.

أخبرها أن ريس المركب التي يعمل عليها حافظ وافق أن يعمل معهم.

ـ من الغد سأخرج معهم للصيد.

ـ لمَ لا تعمل حمالاً في الميناء؟

ـ أحب الخروج إلى البحر يا أمي.

كأنه سمع العبارة من أبيه فرددها. كان الصوت هو نفسه وطريقة الكلام نفسها. كأنه عبد الله زوجها وقد رجع الزمان عشرين عامًا: «البحر جميل

وواسع كرحمة الله، البحر أبونا يا آمنة وخيره بلا حدود»، «ولكنه يقتل يا عبد اللهَ»، «لا تكفري بنعمة الله يا آمنة... الأرض أيضًا تقتل».. أخذه البحر وبقي ابنه وصوته.

تأملت سعيدًا وهو نائم. كان في الهيئة والملامح أشبه بجده، أبوها هي، طويل قوي البنية واضح القسمات، وجهه أسمر وبشرته صافية وعيناه خضراوان وشعره كستنائي كثيف وخشن، ولكن النظرة في عينيه لم يأخذها عن جده بل من حليب ثدييها وهي ثكلي ترضعه، نظرة حزن هادئ وعاتب ومقيم تضفي على ملامحه وهو رجل عذوبة وجه طفل يتيم.

في الغد يخرج للصيد فهل يضمر له البحر ما أضمره لأبيه وجده؟ الرجال يحبون البحر، يذهبون إليه بشوق كالعشاق فما الذي يحبونه في البحر والأرض بين أيديهم ماؤها عذب زلال؟ الأرض أكرم تودعها بذرتك فتمنحك نبتتها وثمرتها وتوفي، فلماذا يحب الرجال البحر؟

«البحر طيب، البحر كريم» كررت آمنة بصوت مسموع تسترضيه خشية نقمته.. «سعيد بين يديك يا بحر فاحفظه وأعده كلما خرج إليك بالسلامة لي».

أغفت آمنة وعلى لسانها تمتمات تستميل البحر بإطرائه وشكره ولكنها في الحلم رأت بستانًا من أشجار الموز والليمون وحبلاً طويلاً ممتدًا نشرت عليه أقمطة مواليد وملابس صغيرة وكانت تجلس بطرف البستان تدير الرحي تطحن قمحًا. حكت لسعيد عن حلمها وهو يتأهب للخروج في ظلمة السحر فضحك وحمل زوادته ومضى.

* * *

(٨)

الخزانة المغلقة

يطيل السلطان في قضاء حاجته ولا يروقه مشروب زيت الخروع الذي وصفوه؛ فهو يستبدل ضيقًا بضيق فيمغص بطنه طول اليوم ويظل يتردد على بيت الراحة المرة تلو المرة بدلاً من المرة الواحدة في الصباح وإن صعبت وطالت.

كان السلطان يقضي حاجته وهو يفكر أنه وحيد يحسده الحاسدون ولا يدركون كم استودع بصدره من هموم.

في شبابه كان مولعًا بفتح خزائنه وتحسس النوادر من جواهره الثمينة ثم انصرف عنها إلا خزانة واحدة ظل يفتحها كل يوم ويمعن النظر في المحفوظ بها.

يكبر المرء وتصقله التجارب فيتعلم ألا يأمن أحدًا، لا زوجة ولا إخوة ولا أولاد. بنت المحسن عجوز شمطاء خاوية الرأس لا يشغلها إلا تحريم ما أحله الله له ومكايدة من ينكح من نساء كأنه يزني بهن. وأبناؤه أغبياء عقولهم كغرابيل مهترئة والنابه الوحيد بينهم عاد من بلاد الإنجليز كأفعى غيرت جلدها. دخل عليه حاسرًا رأسه يجر وراءه عنزة عجفاء، قال

إنه تزوجها فصرفه من مجلسه وقد كاد في ثورة غضبه أن ينادي السياف ليقطع رأسه.

ولكن محمدًا ألح في طلب ملاقاته بعدها فقال تعرف الولد على جرمه وندم على ذنبه وجاء يطلب الصفح والمغفرة ولكن الكلب دخل عليه متقمصًا هيئة الإنجليز وقد لبس سروالاً مقطوعًا على مقادير جسمه يكسّمه ويفضحه وقال إنه أتى ليحدثه في مشروع لتطوير الجزيرة ورفعتها فتلحق بركب الأمم ويعلو نجمها ويضيء.

ـ لقد كتب كل شيء في هذه الأوراق وحملتها لك لتقرأها بأناة وتتأمل تفاصيلها.

ـ لخص لي مشروعك في جملة أو جملتين أما أوراقك فأقرؤها فيما بعد.

ـ أقترح أن نعين مجلسًا للشوري ووزراء منفذين ونفصل خزائن الدولة عن خزائنك الخاصة ونعتق العبيد ونحولهم إلى العمل المأجور وأيضًا...

أوقفه عن مواصلة الكلام وقد اتضح الأمر وانجلى. عاد محمد من بلاد الإنجليز ليقلب نظام الحكم في الجزيرة ويقيد سلطان أبيه. لم يكن السلطان بحاجة إلى قراءة الأوراق أو معرفة المزيد، استدعى حراسه وأمرهم بالقبض على محمد وإلقائه في الأقبية، ثم أمر بترحيل عنزته العجفاء على أول سفينة مغادرة.

جاءته بنت المحسن تتشفع للإنجليزية قالت: إنها تحمل في بطنها فأجابها: «أولادنا لا يتزوجون من بنات الإنجليز فلتحمل من في بطنها وترحل فهو لا يخصنا» رجته بنت المحسن: «انتظر حتى تضع مولودها فآخذه أنا وأربيه ثم رحّلها كما تشاء». بنت المحسن اختل ميزانها وخف

عقلها فما الذي تريده في طفل أبرص أمه نصرانية؟! صرفها من مجلسه وأمر بترحيل الإنجليزية.

استراح السلطان بعد أن قضى حاجته وصفق لخدمه ليحمِّموه ويلبسوه الثياب. عندما انتهوا تطلع إلى نفسه في المرآة وتفحص صورته: جلباب أبيض شديد البياض عليه عباءة من وبر الجمال مطرزة بخيوط الذهب وعلى الخصر نطاق موشّى فيه خنجر يبدو مقبضه المصنوع من الذهب الخالص فوق الخصر وغمده المطعم بالنفيس من الجواهر تحته. في الوجه الأسمر حزم وفي العينين يقظة وفي الجسد المربوع قوة وفي الثوب هيبة. عدّل من وضع عمامته ولمس ذقنه الملتحي برفق وابتسم للمرآة متمتمًا:

«هكذا تكون هيئة سلطان عربي!»

كان على موعد مع الكابتن سميث قائد المحطة، فهل طلب الضابط الإنجليزي مقابلته للتوسط لمحمد وزوجته؟ لو طلب ذلك يكون المستور انكشف واتضح أن محمدًا لم يقدم مشروعًا سوّلته له نفسه بل دفعه إليه الإنجليز وأملوه عليه. إن تحدث سميث في الأمر سيرده ويغلظ له القول ويخبره أنه لا يقبل تدخلهم في شئونه العائلية.

ولكن الكابتن كان قد جاء لغرض آخر. أخبره أن لديهم معلومات «شبه مؤكدة» أن أمرًا ما يدبر ضده في المزارع.

ـ تقصد أن أبنائي الأمراء يتآمرون عليّ؟

ـ لا بل أقصد العبيد. منذ وصلنا الجزيرة ونحن نعرف أن هناك تململاً في المزارع فتابعنا الأمر ورصدناه. وأخيرًا توقعنا أن هناك اتصالات مريبة بين العبيد؛ فمجموعات بعينها تلتقي على فترات منتظمة ويتردد اسم

«سراج»، ولا ندري من هو الشخص ولكننا واثقون أن في هذه الاتصالات ما يؤثر على أمن الجزيرة وأمنك الشخصي.

أردنا أن ننقل إليك ما توفر لدينا لكي تواجه الأمر بما تراه مناسبًا ونحن مستعدون للمساعدة إن طلبتم منا ذلك.

ودع السلطان الضابط الإنجليزي حتى بوابة القلعة وشد على يده معربًا عن شكره وامتنانه، ثم بعث بمراسيل إلى الأمراء في المزارع ليأتوا إليه قبل صلاة العصر وأمر بحضور كل عيونه وبصاصيه: «الذين في المزارع، والذين في الميناء، ومن يسكنون في حارة الحرفيين وبين أكواخ الصيادين والغواصين، أريدهم جميعًا، الليلة بعد صلاة العشاء».

هل صدق سميث فيما نقله له؟ لا بد من التأكد. قد يكون الإنجليز يحتالون عليه تملقًا وادعاءً للصداقة، وربما اختلقوا الموضوع برمته لتعضيد محمد فيبدو ما يقترحه ضرورة لا بد منها مادام الحكم مهددًا وكفة الأمن مختلة. وإن صدق الضابط فما العمل؟

كان لقاء السلطان بالأمراء عاصفًا، قال إنهم رجال من قش لا يعتمد عليهم. قال إنهم متقاعسون مهملون يعيشون في خدر وغفلة. قال سقف البيت يتصدع ويهددنا بالسقوط على رءوسنا. قال «هذه الجزيرة ملكي وخيراتها من حر أموالي، أنبتكم عني في حفظ الأمانة وفرطتم فاستغفلكم العبيد واستخفوا بسلطانكم... أقسم بالله العلي العظيم إن لم تغيروا من أمركم ألقيت بكم في الأقبية مع محمد».

كان غاضبًا وقد اشتعل وجهه بالسخط عليهم حتى إن الأمراء انسحبوا واحدًا وراء الآخر دون أن يجرؤ أي منهم على الاقتراب منه لتقبيل يديه.

ثم اجتمع السلطان بعيونه وبصاصيه وكان غضبه قد انحسر وخمد اشتعال قلبه فصار باردًا كالرصاص. أعلنهم بصوت هادئ:

أريد الخبر اليقين وإلا فسوف أقطع رءوسكم جميعًا وبلا استثناء».

لم يختل السلطان إلى نفسه إلا في ساعة متأخرة من الليل. كان الضيق لا الغضب هو ما يتملكه، ضيق خانق كأنما الهواء من حوله حديد، إنه الجحود يسد الفضاء من حوله ويثقل أنفاسه وصدره، بنت المحسن وأولاده وعبيده كلهم سواء يأكلهم الحسد ويعمي بصيرتهم ويختم على قلوبهم فلا يبقي منها سوى رماد الجحود وحسرة الحقد.

يهب بلا حساب ولا يزدادون إلا نكرانًا للجميل، يبشرونه بالولد فينشرح صدره ويُحمل عبيده الهدايا للوليد وأمه، يذهب إليها بنفسه ويحمل الرضيع بين ذراعيه، يشعر به صغيرًا بلا حول ولا قوة فينشر عليه جناح رحمته. منحهم نطفة الوجود ولحم الأكتاف والاسم والثروة والمكانة فما الذي أعطوه في المقابل؟!

يقولون للسلطان سبعة وخمسون من الذكور، يحسدونه على ذريته وذريته لا شيء أسوأ من اللاشيء ومن أدزاه لعلهم جميعًا كمحمد بصدورهم أفعى رقطاء تتحين الفرصة لتنفث سمها.

فمه مر وصدره مثقل وليس له إلا الله ليشكو إليه لكن الله يعلم، والله يعلم كم هو طيب وكريم ومغبون، ترقرقت الدموع في عينيه وقد غلبته الوحشة وأشفق على حاله.

دخل إلى مخدعه لينام ولكنه فوجئ بوجود امرأة من جواريه. كان قد نسي في غمرة همومه أنها ليلة الخميس.

تطلع إلى الجارية، كانت صبية ممشوقة القد، صبيحة الوجه، أقبل عليها وقد سر لاختتام يومه الكئيب بصحبة هذا القمر الذي يفوح مسكًا ويرنو كالغزال.

جلس بجوارها تحدوه الرغبة في الحديث معها... يفضي إليها بما في صدره فترثي لحاله وتبكي تأثرًا وتمسح جبينه مهونة عليه.

مد السلطان إليها يده وهو يبتسم فابتسمت، لماذا ابتسمت؟! ركبته الشكوك وتوجس. ماذا لو كانت تخبئ خنجرًا أو سمًا؟ ماذا لو كانت متواطئة مع العبيد أو الإنجليز أو الأمراء أو بنت المحسن؟ ماذا لو كانت تبغي أثرًا من شعره أو ثوبه لتسحر له فتصيبه بالعِنّة أو العجز عن حكم الجزيرة؟ ابتسمت ابتسامة غريبة. طردها وخرج إلى الشرفة لعل هواء البحر يخفف من شعوره بالاختناق.

غادر الشرفة وهبط أدراج القلعة على عجل قاصدًا حظائر الخيول.

هب الحراس منتبهين ورفعوا أيديهم بالتحية صاح بهم: أسرجوا «فيض».

أتوا له بحصانه الأدهم ركب وانطلق مبتعدًا.

ركوب الخيل أمتع من ركوب النساء. تربية الخيل أجدى من تربية الأولاد. وهذا «فيض» لم يخذله كما خذله أولاده. ربت السلطان على عنق حصانه الأدهم. شهد ولادته فرآه مهرًا أسود له غرة بيضاء صغيرة، عصفورة تسيل من جبهته وتدق ما بين العينين. قال سميته فيضًا. لم يخذله فيض وكبر ليصبح اسمًا على مسمي، خفيف العدو سريعه إن تلكزه يطير، الخيول لا تطلب مُلكًا. عيونها الوديعة لا تخفي وراءها قلوبًا تفحمت بالكره والحسد. ربّت السلطان على عنق حصانه الذي راح يطأ الأرض مترفقًا، يتهادى مقاربًا بين خطاه وكأنه يشعر بما في نفس سيده ويتجاوب معه. حكى السلطان لفيض كل ما في نفسه، حكى وبكى وتخفف وارتاح وعندما ارتاح لكز حصانه لكزة قوية بركابه فانطلق الحصان يعدو ويرجم الأرض رجمًا بحوافره.

بعد أيام وصلت السلطان التقارير مكتوبة من الأمراء وشفهية من عيونه وبصاصيه. أكد الأمراء أن الأوضاع هادئة في المزارع والنظام مستتب فيها، وقالوا إنهم بعد البحث والتقصي لم يجدوا ما يثير الريبة والشكوك. ولكن البصاصين حملوا إليه أنباء مغايرة فجاءه أحدهم بخبر مجموعة من شباب العبيد عرف عنهم التذمر يسهرون كل ليلة معًا. وجاءه آخر بمعلومات عن بحارة يتسللون في الليل إلى المزارع ويشترون الخضراوات والفواكه من العبيد ويهربونها إلى بيوتهم تحت جنح الظلام. ووافاه ثالث باسم شخص سب السلطان علنًا وأسماء ثلاثة من العبيد يعمل إخوتهم في محطة الإنجليز ويلتقون بهم في السر رغم حظر الاتصال بين المحطة وأهل الجزيرة. وأجمع خمسة من البصاصين أنه لا يوجد في المزارع كلها رجل يدعى سراج بل هناك امرأة مسنة تحمل هذا الاسم.

بعد أن اطلع السلطان على ما جاءه من تقارير أصدر أوامره أن يستبدل بالأمراء الثلاثة الذين يديرون المزارع غيرهم من أبنائه الراشدين عيّنهم بالاسم، وأن يلقى القبض على المشتبه بهم. من سبه أو تآمر عليه يقطع لسانه وتُجَبّ مذاكيره، ومن سرق تقطع يده، ومن عصى أمرًا من أوامره يجلد مائة جلدة على الملأ.

كان السلطان موقنًا أن الوقاية خير من العلاج وأن معاقبة كل المشتبه بهم كفيل بردع الآخرين فيتحسبون لأي فعل طائش حتى ولو كان التسلل بعشر ليمونات في الظلام. أما المرأة التي تدعى سراج فقد حيره أمرها فالجزيرة تخلو من سجن للنساء والأعراف وتقاليد الأقدمين التي يحرص على مراعاتها تحول دون أن يدفع بامرأة إلى ساحة قطع الرءوس أو يأمر بجلدها على مرأى من الآخرين. فهل يتركها؟ وإن كانت عنصرًا خطرًا يهدد الجزيرة وأمنها؟ هل يأمر بسَمْل عينيها وخلع أسنانها وجدع أنفها فتكون

عبرة للآخرين؟ حيره الأمر فأمر أن يأتوا إليه بها لكي يراها ويتفحصها ويتحقق مما وراءها.

جاءوا بها، أعلن حاجبه ذلك. قال «فلتدخل» فدخل اثنان من الحراس وبينهما قفة يمسك كل منهما بإحدي أذنيها. ولم يفهم السلطان معنى ما يراه ثم انتبه عندما وضع الحارسان القفة على الأرض أن المرأة بداخلها. هل يسخرون منه... هل هو مزاح ثقيل... ومن يجرؤ على ممازحة السلطان؟! كانت المرأة ضامرة كسيحة عوراء سقطت أسنانها ونحل شعرها فبدت كعرق حطب يابس بلا حياة.

ـ هل أنت سراج؟

ـ هل أنت السلطان؟

ما شاء الله. الحيزبون المتهالكة لا ترد على سؤال السلطان بل تسأله وكأنه المحقق!

ـ ألست السلطان خالد؟

ـ السلطان خالد؟!

ـ هو أنت بعينه... أتظنني لا أعرفك لقد رقصت وغنيت يوم طهور ابنك عليّ الدين حتى أوجعني خصري وبُحّ صوتي. كم صار عمر على الدين الآن؟

لم يكن جسد المرأة وحده هو الذي انكمش كثمرة جافة بل كان رأسها أيضًا قد تعطن فاختل عقلها وفسدت ذاكرتها. ومع ذلك كانت المرأة المكومة في القفة تنقل عينيها من سقف القاعة إلى أرضها تحدّق مشدوهة في الثريات والأبسطة والحواشي وهي تكرر لنفسها:

ـ هي ليلة القدر وطاقتها انفتحت لك يا سراج فاطلبي ما شئت.

ـ يا سلطان عندي ثلاثة طلبات لا أكثر: أريد زوجًا لأن زوجي مات. وأريد نعجة لأنني بعت نعجتي عندما ضاق بي الحال. وأريد بيتًا لأن زوجة ابني تسيء معاملتي... هل هذا كثير؟

ابتسم السلطان ثم اتسعت ابتسامته ثم بدأ يقهقه حتى كاد يستلقي على ظهره من شدة الضحك، ثم نادى على حراسه فحملوا القفة وذهبوا والمرأة تصيح بصوت مبحوح:

ـ أليست ليلة القدر؟! أليس هذا هو السلطان خالد؟! ما الذي حدث؟!

* * *

(٩)

العيـــد

الليلة تتلألأ «غرة العرب» بأضواء العيد فتخطف الأبصار ولا تزيد الحاسدين إلا كمدًا على كمد. ابتسم السلطان لنفسه وهو يجلس مرتخيًا في حوض الحمام وخادمه الشخصي يصبن له رأسه وجسده.

دعي القناصل والوكلاء وأكابر الجزر المجاورة، وأمر بنشر الزينات والأضواء ومد الأسمطة لجميع أهل الجزيرة فيعرف القاصي والداني ومن يعمر الولاء قلبه ومن يصطلي بجمرة الحقد أن يد نعمان بن خالد القوية القابضة مبسوطة تغدق بلا حساب.

سيجلس على المنصة العالية يحيط به ضيوفه وأهل بيته، سترقص الخيول على إيقاع المزامير والطبول وتركض الهجن ويقدم الحواة ألعابهم ويشاهد الناس نفيس ممتلكاته من عجائب الحيوان والطير، وفي الليل ستنطلق الألعاب النارية فتبدد بألوانها الساطعة ظلمة السماء.

سكب الخادم ماء الورد على رأس السلطان وجسمه. وكان خادم آخر يقف متأهبًا بمنشفة كبيرة، لفّه بها وجففه، ثم انهمك خادم ثالث في إلباسه: الجلباب والعباءة والمركوب والحزام وأخيرًا العمامة.

تأمل السلطان نفسه في المرآة. ملأته الغبطة فابتسم ثم أرسل في استدعاء بنت المحسن.

مثلت بين يديه في ثوب أسود فضفاض تتخلل نسجه خيوط الذهب وبرقع من العملات الذهبية المصفوفة صفًا يغطي وجهها من أرنبة الأنف حتى العنق. لا شيء يبدو من الوجه المجعد ولا الجسد العتيق. ابتسم السلطان، الحيزبون الماكرة لا يبدو منها سوى العينين المكحولتين والعود السمهري والهامة العالية! حرك رأسه مستحسنًا وصرفها.

استدعى باقي حريمه فدخلت عليه جمهرة من نساء صبغن القاعة بألوان ملابسهن الزاهية. دار بعينيه متفحِّصًا:

الشعر محجوب والوجه مستور والجسد مصون، العيون وحدها تشهد أن مرعى السلطان مرتع لأحلى الظباء. همهم راضيًا وصرفهن.

في ساحة قطع الرءوس (اليوم ساحة العيد) رأى الأهالي الذين بكروا في الخروج المنصة العالية المهيأة لجلوس السلطان ورأوا الحراس في الانتظار يقفون منتبهين تتقاطع على صدورهم أحزمة البارود.

قال حافظ:

ـ نذهب لمشاهدة السباع المعروضة في الأقفاص.

أجابته آمنة:

ـ السباع لن تطير، نشاهد الحواة أولاً.

ـ ما المتعة في مشاهدة الحواة؟! بنا يا سعيد.

ترك الولدان آمنة وتودّد مشدوهتين أمام واحد من الحواة، تتساءلان كيف يخرج أفعى من سلة فارغة ثم يعيدها إليها ويقلب السلة فإذا بها خاوية مرة أخرى.

شق سعيد وحافظ طريقهما وسط الزحام إلى الجهة الأخرى من الساحة حيث أقفاص السباع.

كان الضبع هو أول ما شاهدا: حيوان صغير الصدر، بارز البطن وكبير الكفل والفخذين.

سأل سعيد حافظًا:

ـ لماذا يقولون أحمق من ضبع؟

ـ لا أعرف، أعرف فقط أن الضبع ينبش القبور ويأكل الجيفة.

تأملا شكله ودورته الرتيبة في القفص وخطوته العرجاء ثم تحوّلا عنه.

شاهدا الأسد وأخذا بعظم هيكله ومهابة جلسته والشعر الكثيف الذي يحيط برأسه، وبدا لهما الضبع حقيرًا وهما يتطلعان إلى هذا المخلوق المحكم الخلقة المفتول العضل، الجميل رغم محيّاه الجهم. فاجأهما زئيره العالي فتزعزعت أحشاؤهما وإن ضحكا عاليًا بين الفزع والتوقد. زأر الأسد مرتين ثم قام وظل الولدان بلا حراك.

لو قال لهما أحد إن في العالم حيوان أجمل من الأسد لكذباه ولكن عيونهما كذبتهما ما إن انتقلا إلى القفص الثالث. تطلعا مبهوري الأنفاس وتثبتت في الأرض أقدامهما كأنما دقت بمسامير. كان السبع الذي أمامهما أحكم خلقة من الأسد يفوقه بهاء. جسده كالأسد، عظيم الصدر والكفل والفخذين، مشدود مفتول ولكنه مديد أكثر ورشيق أكثر ولمعة فرائه الذهبي تقطعه خطوط سوداء. ترتج صفحة وجهه دون هز ويتألق ضوء عينيه كنجوم الليل رغم شمس النهار الساطعة. قوي كالأسد، مُهاب مثله، ولكنه يطأ الأرض مترفقًا في خفة القطة وليونتها.

قال حافظ فجأة:

ـ نصعد التلة لنأتي بعمّار.

راحا يصعدان في صمت. كان السبع الأخير الذي شاهداه ثالثهما، يفكران فيه ويستحضران تفاصيل صورته ويتساءلان عنه. ترى ما اسمه وما موطنه؟ كيف تمكن منه الصياد؟ هل ألقي عليه شباكه؟ فكيف لم يمزقها؟ هل أصابه بالبارود وأين الإصابة في هذا الجسد البديع والمشية المختالة؟ وكيف لهذا الهيكل العظيم أن يطأ الأرض بهذه الخفة والانسياب؟ ترى كيف يبدو وهو يركض، كيف يبدو وهو يثب، كيف يبدو وهو ينقض؟

شغلتهما الأسئلة فظلا صامتين إلى أن وصلا أعلى التلة.

وجدا صعوبة في إقناع عمَّار بالنزول معهما: «أولاً نريدك أن تشاهد السباع التي رأيناها، وثانيًا هناك مفاجأة أعددناها لك» تطلع إليهما عمَّار متسائلا «مفاجأة؟!» تبادل الولدان ابتسامة خبيثة ولكنهما لم يكشفا له السر.

أسند عمَّار ذراعًا على كتف سعيد والأخرى على كتف حافظ. كان يريد أن يمشي ويعاوناه، ولكنهما أحاطا بخصره كل بذراع وسارا، دون أن تلمس قدماه الأرض حتى هبطوا من التلة.

تعرف عمَّار على السبع وقال لسعيد وحافظ إن اسمه «النمر».

ـ قبل عامين اثنين كان صغيرًا كالجرو. وكان السلطان يحيط عنقه بطوق ويمسك بطرف السلسلة في يده.

قال حافظ باعتداد كأنما النمر له أو يخصّه.

ـ الآن كبر النمر، السلطان لا يجرؤ أن يطوقه ويمسك بطرف السلسلة في يده!

نظر عمَّار إلى حافظ مأخوذًا ثم حول عينيه إلى النمر فرآه وحيدًا في القفص ومع ذلك فالسلطان «لا يجرؤ» طرب لصياغة حافظ وللفكرة فضحك.

ـ الآن نأخذك «للمفاجأة!».

دخل السلطان الساحة على رأس موكب فضربت الطبول وصدحت الموسيقى واشرأبت الأعناق وهرول البعيدون إلى مواقع أقرب تمكنهم من المشاهدة.

وكانت آمنة تفترش الأرض أمام قارئة للطالع. وشوشت القواقع وأعادتها للمرأة التي حركتها بين يديها وألقت بها على الرمال وتطلعت فيها ثم جمعتها على عجل وصرّتها في منديلها وأعادت لآمنة التمرتين اللتين كانت قد دفعتهما لها ثمنًا. وقالت المرأة وهي تبتعد مهرولة: «سأذهب لمشاهدة السلطان».

وقالت آمنة لتودّد وهما تسيران إلى حيث يمكنهما الفرجة.

ـ هل تظنين أن قارئة الطالع رأت مالا يسر فحجبته عني؟

قالت تودّد:

ـ هذه عادتك يا آمنة تتطيرين من الطير العابر. ركضت المرأة لكي لا تفوتها مشاهدة السلطان وضيوفه وحلي نسائه وأثوابهن.

ورغم أن تودّد أعادت هذا الكلام عدة مرات بعد ذلك إلا أن التوجس لم يترك آمنة حتى عندما أطلقت المدافع الألعاب النارية التي لم ير أهل الجزيرة مثيلاً لها من قبل. عناقيد من الضوء الساطع تنتشر في الفضاء وتصبغ أسوده بالأخضر مرة والأحمر مرة ومرة بالأصفر. كانت آمنة ترى وتسمع ولكن قلبها كان غائبًا يتساءل: ترى ما الذي رأته قارئة الطالع ولم يطاوعها قلبها على الإفصاح به؟!

* * *

عرف عمّار بأمر المفاجأة، شباب العبيد يقيمون عيدًا داخل العيد، فالأمراء بصحبة السلطان وصخب العيد في ساحة قطع الرءوس لن يفضح سر الطبول في ساحة منسية وسط حقول النخيل.

رأى عمَّار العبيد وقد افترشوا الأرض على شكل حلقة واسعة حول الساحة ورأى كومات من الحطب الموقد تحت دلات صغيرة قال سعيد إنها ركوات القهوة، فانتبه عمَّار إلى أن الرائحة الغريبة المميزة التي يعبق بها المكان هي رائحة القهوة.

قام جمع من العبيد إليهم ورحبوا بهم وأفسحوا لهم مكانًا للجلوس وقال أحدهم لعمَّار وهو يضيفه.

ـ تفضل يا جدي.

ـ شكرًا يا ولدي.

قالها عمَّار وهو يبتسم ثم راح يرشف القهوة ويستطعمها مستجيبًا.

بدأ قارع الطبول يضرب آلته إيذانًا بابتداء الحفل. وكان مركز الساحة خاليًا إلا من نخلة عالية في جانب منها. بحذاء النخلة وقف رجل مقنّع يرتفع على عكازين خشبيين طويلين.

قرعٌ صاخب وسريع أعقبته دقات منقطعة وبطيئة تقدم على وقعها الرجل العالي من ظل النخلة إلى مركز الساحة، وعندما تصدّر نشر ذراعيه وراح يميل يمنة ويسرة ويلف ويدور وينحني ويستقيم تصاحبه دقات الطبلة. ثم دخل الساحة راقص آخر أخذ يتعقبه ويحاكيه في كل حركة يقوم بها وبدا الراقص الثاني أمام القامة المديدة للراقص المقنع وذراعيه المنشورتين كأنه ليس سوى ظله على الأرض.

ظلا يرقصان رقصة متناغمة متفقة حتى دقت الطبلة دقات متتالية سريعة ودار الرجل العالي دورات سريعة متلاحقة قلّده فيها الراقص الصغير، ثم أعطى الكبير للصغير منديلاً معقودًا وانصرف عائدًا إلى ظل النخلة.

مال حافظ على عمَّار وهمس.

ـ هذا الرجل روح الشجرة... هل تعرّفت عليه؟

تطلع إليه عمَّار كأنه لا يفهم ولم يقل شيئًا ثم فجأة تدفق الضوء، وكأنما أشرعت نافذة كبيرة شرقية فرأى كل شيء، أشرق وجهه ومال على حافظ قائلاً:

ـ إنه روح الشجرة، عرفته، أعرفه، والمنديل المعقود يحمل النطفة أليس كذلك؟!

ضحك حافظ.

ـ هأنت تذكر كل شيء يا عمَّار!

همهم عمَّار كأنما لنفسه.

ـ نعم أذكر كل شيء، سأذكر كل شيء...

بدا أنه سيبكي تأثرًا، كان يغالب دموعه، مال على سعيد وهمس له شارحًا.

ـ الرجل العالي روح الشجرة وهذا الذي يركض الآن خائفًا يحمل «النطفة» في المنديل المعقود. وعليه أن يصونها.

كان حامل المنديل يجري في الساحة على إيقاع الضربات المتلاحقة يتطلع يمينًا ويسارًا، للأمام وللخلف وقد ارتسمت على وجهه علامات التوجس والفزع حتى تجسدت مخاوفه في راقص آخر دخل الساحة وأخذ يتعقبه.

كان الراقص الجديد يلبس قناعًا ينطق بالقسوة والشر: العينان خاليتان والفم مزموم وخطوط الوجنتين قوسان يلتقيان في تشنج باد. ركض القناع الشرير خلف الراقص حتى لحق به وراح يعترض طريقه.

يرفع ذراعيه في وجهه فيراوغه حامل المنديل، يميل بجذعه يمينًا فيميل الآخر بجذعه يسارًا واستمر الرقص ـ المواجهة يتصاعد على دقات الطبول المتسارعة حتى انسل راقص جديد إلى الساحة واقترب خلسة من حامل

المنديل المعقود فسلمه له. علقه حول رقبته وصار يحرّك ذراعيه ويدرأ قناع الشر بعيدًا. وواصل رقصته وراقصون آخرون يتدفقون إلى الساحة يشاركونه الرقص ويتناوبون حَمل المنديل المعقود حول أعناقهم.

وعلى إيقاع دقات قوية بطيئة ومنتظمة راح الراقصون ينشرون أذرعهم في حركة رادعة يواجهون بها قناع الشر.

كانوا يتقدمون وكان يتقهقر ثم توالت الدقات متسارعة متصاعدة حتى انسحب قناع الشر راكضًا.

تدفق العبيد إلى مركز الساحة وأخذوا يرقصون رقصًا صاخبًا منفلتًا ومنتشيًا.

وكان سعيد يراقب ذلك كله مأخوذًا ومنبهرًا وزاد انبهاره عندما رأى حافظ يقفز إلى الساحة ويشارك العبيد الرقص، ينشر ذراعيه أمامه ويحرك قدميه وكتفيه وردفيه بانتظام على إيقاع الطبول. متى تعلم حافظ أن يرقص هكذا وكيف؟!

مال عليه عمَّار وصاح في أذنه لو أنني أصغر سنًا لشاركتهم الرقص، لماذا لا تشاركهم؟

شعر سعيد بالدماء تصعد إلى رأسه وتمتم في خجل.

ـ لا أعرف كيف!

* * *

(١٠)

حلم سعيد

شعر سعيد أنه يختنق وكان الرجل الذي يركب على كتفيه يلف ساقيه على رقبته ويضغط ويسبه ويضربه. وعندما بدأ الرجل الذي كان له حافران كالدواب يبول ويتبرز تمني سعيد الموت، ثم استيقظ من نومه.

لم يكن ما رأى إلا كابوسًا ومع ذلك فقد لازمه الضيق وكأن ما حدث في الحلم محنة عاشها ولم يتمكن من التخفف من وطأتها حتى بعد أن نجا منها. ولم يتذكر سعيد إلا بعد أيام أنه استعاد في المنام مشهدًا من حكاية حكاها له الولد محمود وهما يتجولان في شوارع الإسكندرية.

خرج سعيد إلى البحر يجر ساقيه وكأنما انتقل إليهما ذلك الهم الثقيل الذي حمله على كتفيه في الحلم وعاد من الصيد يجر رجليه كما ذهب. ولكنه الآن كان يعرف أن توجس قلبه كان حدسًا بمصيبة يخبئها اليوم في طيّاته.

حكى لآمنة ما جرى فبكت ودعت على ريس المركب الذي يظلم الصيادين ويتجبر عليهم. ثم قالت وهي تمسح دموعها بكفيها «ولكن أم لطيف لا بد من أن تعمل على مساعدة حافظ فهو ابن اختها وقد تعلق به

قلبها منذ كان رضيعًا في الأقمطة. لن تتركهم يلقون به في الأقبية لمجرد أنه سب ريس المركب أو دفعه بيده في لحظة غضب. مؤكد أنها ستذهب لبنت المحسن وترجوها أن تتوسط لدى السلطان، ومن يدري لعل الله يرقق قلب السيدة علياء رحمة بأبي حافظ وأمه وإخوته الذين يعولهم».

كان سعيد شاحب الوجه منكسر العينين فحاولت أن تطمئنه وتخفف عنه. ولكنها حين أطفأت القنديل وتمددت على فراشها عادت تبكي فهي تعرف حافظ منذ كان يلثغ في حرف الراء ويقلب مقاطع الكلمات ويمشي وهو يتلفت حوله خوفًا من جنبات البحر، أطعمته مع سعيد وقسمت الرغيف الواحد بينهما وركضت خلفهما لتأديبهما عندما تجاوزا الحدود. تمسك بأحدهما وتضربه فيرتدع الاثنان، من ذاق ضربها ومن لم يذقه. ولد شهم وطيب كثيرًا ما مازحته قائلة: «لو كانت لي ابنة يا حافظ لزوجتها لك حتى وإن لم تحل في عينيك!» فيضحك «كنت سأستجير بعمّار وأقول له هل يرضيك أن تزوجني آمنة بابنتها الدميمة».

كانت آمنة تبكي بلا صوت وتظن سعيدًا مستغرقًا في النوم.

ولكن سعيدًا كان مؤرقًا كأمه يتساءل إن كان قد قصّر في مساعدة صاحبه «هل أخطأت عندما استجبت لأمر ريس المركب؟ هل أخطأنا عندما أرهبنا وعيده وسوطه فعدنا إلى العمل صاغرين وحافظ أمام عيوننا مقيد بالحبال؟ وما الذي كان بإمكاننا عمله وقد هددنا ريس المركب بنفس المصير إن تجرأ أي منا عليه ولم يطع أوامره؟ ولماذا استشاط حافظ بهذا الشكل وأمسك بتلابيب ريس المركب بدلاً من أن يحدثه بهدوء ويعمل على إقناعه أن معروف الصياد لا يتمارض بل هو مريض فعلاً ولا يستطيع القيام بالعمل؟ ألم يكن من الأفضل أن يتحامل معروف على نفسه ويشد معنا الشباك مادام ريس المركب تعنت وركبه العناد بدلاً من أن تتعقد المسألة وتؤدي إلى مشادة يمسك حافظ بتلابيب ريس المركب دفاعًا

عن معروف ثم يفقد صوابه ويركض إلى سلة من سلال السمك ويلقي بما فيها في البحر سخطًا واحتجاجًا؟»

ـ هل نمت يا آمنة؟

ـ لم أنم يا سعيد.

ـ هل قصرت في مساعدة حافظ؟

ـ لم يكن بيدك شيء يا سعيد... هل كان بيدك شيء؟

عاد للصمت وبدا أنهما غفوا، ولكن لا آمنة ولا ابنها كانا قادرين على النوم وقد كان يشغلهما السؤال نفسه: «سعيد وحافظ صديقان منذ الطفولة فكيف يقع مكروه لأحدهما ويقف الآخر مكتوف اليدين؟».

هذا ما لا يجوز... ولكن ما الذي كان بيد سعيد ليفعل ما يجوز؟!

عندما عادت آمنة من عملها في اليوم التالي حكت لسعيد عن أم لطيف: «المسكينة جاءت اليوم إلى المطبخ. وعيناها منتفختان من أثر البكاء ثم ذهبت إلى بنت المحسن واستعطفتها وقالت: إن حافظًا أخطأ ولكنه طائش وصغير، قالت إن أباه ضرير وأمه مريضة وهو الذي يعول إخوته العشرة. توسلت إليها وقبلت رأسها ويديها واستحلفتها بكل عزيز أن تتشفع لحافظ لدى السلطان. وعادت أم لطيف أسوأ مما ذهبت بعد أن ردتها بنت المحسن خائبة».

كانت آمنة ساخطة ومتمردة ولكنها دارت ما في قلبها عن سعيد فماذا لو انتقل إليه شعورها فأتى عملاً متهورًا فأصابه ما أصاب صاحبه. قضت ليلتها تدعو في صمت على ريس المركب والسلطان وزوجة السلطان. «نخدمهم ونشقي طول اليوم ليملئوا بطونهم ثم نقصدهم في خدمة لن تكلفهم إلا كلمة تعيد لنا روحنا فيقبضونها!» هذا ما قالته تودّد وكانت

على حق. فهل يمكن أن يكون البحر أرحم منهم؟ لا بد أنه أرحم فليس للبحر قلب ولا عقل ولا هو من نسل آدم فنعتب عليه ونلومه ونقول له: «لماذا لم ترأف بحالنا يا بحر ألست بشرًا مثلنا؟!».

* * *

«من الطارق في هذه الساعة من الليل؟» تساءلت آمنة متطيرة وهي تقوم لفتح الباب. كان الطارق شابًا أسود من عبيد المزارع. سأل عن سعيد فكادت تنكره، ولكن الزائر وكأنما قرأ ما في خاطرها قال: «لا تخافي يا خالة، لا أقصد شرًا، أنا صديقه».

دعته للدخول وأيقظت سعيدًا وبقيت تغالب النوم حتى يذهب الغريب فتستفهم عن سبب زيارته ولكن النوم غلبها. وعندما استيقظت في الصباح كان سعيد قد بكر في الخروج إلى الصيد فلم تره ولكنها رأت كيس القماش الممتلئ بحبات القهوة الخضراء فعرفت أن زائر الليل قد أتى به. تساءلت: «من أين لشاب من عبيد المزارع بالقهوة التي تزرع في عدن؟!».

* * *

ـ هل تشربين القهوة معي؟

ـ أشرب القهوة؟!

ـ ليست حرامًا، صدّقيني يا أمي في مصر يشربونها وفي اليمن أيضًا وفي كل مكان.

ـ هل أنت متأكد!

ـ والله متأكد!

ـ إذن أذوقها.

رشفت على استحياء، فاستغربت المذاق، كان قويًا ونفاذًا كالرائحة رشفت رشفة ثانية ثم ثالثة فاستعذبت الطعم رغم المرارة.

ضحكت بمرح من يأتي فعلاً أهوج.

ـ لو كانت حرامًا تكون خطيئتي عليك.

فضحك سعيد:

ـ يبدو أنها حرام؛ لأنها جعلتك تضحكين كأنك شربت الخمر!

صبت آمنة لنفسها مقدارًا ثانيًا من القهوة فقال سعيد وهو يبتسم:

ـ مادمت أحببتها فسأزرع لك شجرة قهوة في البستان الذي رأيته في الحلم، ما رأيك؟

ـ ولو علم السلطان؟!

السلطان لا يعلم أن العبيد يشربون القهوة وأن أشجارها المحرمة مزروعة في ستر أشجار الخروب والتمر هندي التي تحميها بجذوعها الكبيرة وظلالها الكثيفة وتدرأ عنها هجمات الجراد والشمس المحرقة والعيون الدخيلة. السلطان لا يعلم أن عبيده يشربون القهوة ويعدون لخلعه. كان حافظ قد حدثه عن ذلك فتوجس سعيد فما الذي يملكه عبيد ضعفاء في وجه سلطان يسكن قلعة يحميها الحراس المسلحون؟ سلطان قوي وشرس يقطع الألسنة ويَجُبّ المذاكير ويلقي في الأقبية لمجرد الاشتباه، فما الذي يفعله لو تأكد الأمر لديه؟ سيحصد الرءوس كأنها عيدان الذرة وقت القطاف وتجري الدماء أنهارًا حتى تلوِّن البحر وتصبغ حتى اللؤلؤ في قلب المحار. قال سعيد ذلك لحافظ ولكن صاحبه كان عنيدًا فقال: «ولكننا سنحاول وقد نستطيع، حاول معنا؟» لم يجبه سعيد. لم يطاوعه لسانه في قول «لا» نهائية وقاطعة، ولجم عقله النعم الطائشة

التي لا يعلم إلا الله وحده ما تجره وراءها من مصائب، وكان مازال متحيرًا يقف بين النعم واللا عندما جاءه زائر الليل يسأله عن قراره. جاء وذهب وظل سعيد يقلِّب المسألة في رأسه وكلما قلبها أكثر افتقد حافظ وألح غيابه عليه وأنهكته الأفكار وهي تدور في رأسه كدوامة في البحر تتقاذف مركب الصياد الوحيد.

ذهب لزيارة عمَّار.

ـ هل جئت لتكتب لي الرسالة يا سعيد؟

ـ لم أدبر قلمًا وورقة بعد يا عمَّار.

ـ لا تهمل الأمر يا سعيد؛ لأني أريدها أن تصل بسرعة. وما أحوالك يا سعيد؟

ـ أشعر بالضيق يا عمَّار. منذ أخذوا حافظًا وأنا بلا صاحب أقضي المساء وحدي وفي الصباح أذهب للصيد متكدرًا؛ لأنني لم أعد أطيق رؤية ريس المركب. لقد حلمت به يركب على أكتافي ويكاد يخنقني وهو يلف ساقيه حول عنقي.

ـ غريب!

ـ الحلم ليس غريبًا؛ لأن الولد محمود كان قد حكى لي عن قصة السندباد البحري الذي التقى شيخًا قعيدًا فحمله قاصدًا المعروف ثم اتضح أن الرجل شيطان له حوافر، ظل يعذبه ويضربه ويجبره على العمل حتى تخلص منه السندباد وأوقعه من على كتفيه وضربه بحجر.

ـ كيف تخلص منه وهو شيطان؟

ـ أتى بثمرة كبيرة أفرغها وجففها وملأها بالعنب ولما اختمر سقاه منه فانتشي وارتخت أعضاؤه فأسقطه السندباد من على ظهره وقتله.

ـ وهل كان للرجل وجه ريس المركب في الحلم؟

ـ لا، كان رجلاً قبيح الوجه وكان يعذبني فعرفت أنه ريس المركب.

ـ ليس ريس المركب من رأيت يا سعيد بل هو السلطان، السلطان بعينه!

قالها عمَّار وانفرجت أساريره بعد أن كان يتابع ما يقوله سعيد مقطبًا ومشدودًا، واستعاد وجهه عذوبته وقد تبسّم الثغر والعينان.

ـ ولكنك تخلط بين الحكاية والحلم يا عمَّار. في الحكاية التي قصها عليّ الولد محمود قتل السندباد شيخ البحر بعد أن أسقطه عن كتفيه ولكنني في الحلم لم أر إلا نفسي والرجل على كتفي يضربني ويكاد يخنقني بساقيه.

ورغم ذلك فقد أصر عمَّار أن حلم سعيد رؤيا تبشر بسقوط السلطان.

ساعتها كاد سعيد يفضي لعمَّار بكل ما في نفسه، كاد يسأله المشورة ولكنه أحجم وودعه ومضي وهو يتساءل كيف يكون حلمه رؤيا ببشارة لم ترد فيه؟ هل يذهب مع العبيد فيساهم في تحقيق البشارة أم يُحكِّم عقله مادام كل ما حوله يؤكد أنهم بلا حول ولا قوة والسلطان قابض ومهيمن؟!

عادت الدوامة تدور في رأسه وتنهكه كما ينهكه غياب حافظ وحضور ريس المركب الكريه.

جلس سعيد على الشاطئ، كانت السماء صافية مرصعة بآلاف النجوم. راح يتطلع إليها وقد تذكر ما قاله عمَّار له وهو طفل صغير «هذه النجوم في السماء هي أرواح أحبابنا الذين ذهبوا، نارها عذاب الفراق ونورها

شوق الوصل والتلاقي» قال له عمَّار: إن السماء رحبة ورحيمة لا تترك إنسانًا وحده في العراء بل تضم الغريب تحت سقفها وتؤنس وحشته بأهِلّة النجوم، إن نظر إليهم رآهم، وهم يصاحبونه حتى وهو يمشي وعيناه مثبتتان على الأرض.

فهل يمكن أن يجد محمودًا بين كل هذه النجوم، راح سعيد ينتقل بعينيه من نجم إلى نجم يقول: هذا محمود ثم يقول: ليس هذا محمودًا فيرحل إلى نجم آخر ويتطلع فيه محدّقًا، وحين كاد سعيد يستسلم لليأس ويمضي وجده. ولما وجده بكى حتى اختلطت دموعه برذاذ البحر على وجنته.

وأتاه النجم المتلألئ في البعد، جلس بجواره على الرمل الرطب فأمسك سعيد بيده وراح يفضي له بما في قلبه. وقبل أن يذهب محمود وقد أوشك أن يدركهما الصباح سأله سعيد: «ماذا تقول يا محمود.. هل أذهب.. وليكن ما يكون؟».

(١١)

السـر المحفوظ

كانت لمليحة قدرة على معرفة التغيرات المفاجئة في الطقس قبل وقوعها. تقول: إن الغد سيأتي بالبرق والرعد والسيول فيأتي الغد بالبرق والرعد والسيول. تقول: إن ريحًا صفراء عاتية ستقتلع الأشجار وتحجب الأرض والسماء فما هي إلا ساعات وتغشى الريح الصفراء العيون.

كان الناس يقولون: كيف والسماء كانت صحوًا لا ترى العين فيها علامة ولا إشارة؟! يستغربون وتستغرب مليحة استغرابهم؛ لأن الجسد يبصر أكثر مما تبصر العيون. ألا تجفل أبدان الخيول قبل العاصفة؟ كذلك جسدها كانت تسري فيه الآلام المبرحة تضرب في الرأس كمطرقة الحداد أو تيبس المفاصل، فتبدو وكأنها عروق جف منها ماء الحياة.

كانت آمنة تشبه أمها كثيرًا. كانت مثلها طويلة القد حسنة القوام، صبيحة بياض بشرتها تضرب فيه صفرة رقراقة وصافية، ومثلها كان شعرها أسود طويلاً تضفره في جديلتين. ولكن أحدًا لم يعرف عن آمنة ولا هي عرفت في نفسها تلك القدرة التي كانت لأمها ولذلك فقد حارت أمام قلبها وقد

تمكن منه اليقين بأن شيئًا ما يسري آتيًا. تقول لقلبها: ما هو؟ خير أم شر؟! لا يفصح وإن بقي عنيدًا في اليقين.

كذّبت آمنة قلبها وواصلت الحياة تغربل الطحين قبل شروق الشمس وتعجنه وتتركه يختمر، وعندما تبدأ النساء في التوافد إلى المطبخ تشرع في تكوير قطع العجين وفردها وإدخالها إلى النار لتنضج. وفي الليل تتحدث مع سعيد وتغرورق عيناها بالدموع لذكر حافظ ثم تأوي إلى فراشها فيقول لها قلبها إن شيئًا ما يأتي، فتكذّبه.

في تلك الليلة لم يشغل آمنة الحديث مع قلبها إذ كانت تفكر فيما همست لها به تودّد في المطبخ:

ـ ولو عرفت أم لطيف؟

ـ لن تعرف، وحتى إن عرفت ستكتم الخبر كأنها لم تسمع به.

ـ إنها تخاف يا تودّد وهي ريسة المطبخ. ولو انكشف فعلنا عاقبونا جميعًا ولكن عقابها هي يكون أشد؛ لأنها المسئولة عن الوارد إلى المطبخ وما يدور فيه.

طمأنتها تودّد وأكدت أن أم لطيف ليست عقبة أمام ما ينوونه.

ـ اتركي الأمر لي.. إن وافقت أتصرف.

كادت آمنة تعيد على تودّد ما سبق وعبرت عنه من مخاوف ولكنها قالت:

ـ تصرفي يا تودّد والله يستر!

بعد يومين وعلى مسمع من كل نساء المطبخ. قالت تودّد لأم لطيف:

ـ والله يا أم لطيف إن آمنة مظلومة أكثر منا جميعًا فما تقوم به من خبيز يوم الخميس يكفي لإنهاك عشر نساء. لماذا لا تطلبين من بنت المحسن أن تخصص امرأة أو اثنتين لمساعدتها.

تنهدت أم لطيف:

ـ قلت لها أكثر من مرة ورفضت.

ـ والحل؟

ـ الحل في يد الحلّال.

سكتت تودّد وانصرفت إلى عملها وكأنها اقتنعت بإجابة أم لطيف. في اليوم التالي عادت للحديث في نفس الموضوع.

ـ جاءتني فكرة يا أم لطيف. بدلاً من أن تنزل آمنة التلة عصر الأربعاء وتعود تصعدها قبل فجر الخميس فتمشي كل تلك المسافة وأمامها عمل مضنٍ، تقضي ليلتها في المطبخ فتنام كفايتها ويتسع وقتها لخبيز الخميس المضّاعف.

تدخلت امرأة في الحديث:

ـ مالك يا تودّد تريدين تكحيلها فتعميها، وما ذنب آمنة لتنام وحدها في هذا المكان الموحش في الليل؟! والله لو دفعوا لي مال قارون ما فعلت... ألا يمكن أن يطلع لي عفريت؟!

ضحكت تودّد:

ـ ما عفريت إلا بني آدم... على أي حال ما أردت إلا مساعدة آمنة وإن كانت الفكرة لا تروقها فلا داعي. وإن كانت تروقها وتخشى النوم وحدها أبقى أنا معها ليل الأربعاء من كل أسبوع أسليها وأؤنس وحشتها، ما رأيك يا آمنة؟

كانت آمنة تتطلع إلى تودّد مأخوذة بدهائها الذي مكنها من طرح الأمر بالشكل الذي يوصلها لما أرادته. وافقت أم لطيف على كلام تودّد الذي بدا لها ولكل نساء المطبخ أنه عفوي ابن ساعته، وأن اقتراحها بالبقاء في المطبخ مع آمنة ليلة في الأسبوع إيثارًا وعطفًا ومحبة.

كادت آمنة تفشي السر لسعيد ثم عدلت وقد تذكرت العهد الذي قطعته على نفسها أمام تودّد فأودعت السر صندوقًا أغلقته بقفل من حديد وواصلت حياتها، تصعد التلة في عتمة السحر وتهبط منها والشمس مائلة للغروب، هكذا في خمسة أيام من أيام الأسبوع وفي اليوم السادس تصعد وتؤدي عملها فإذا ما انقضى اليوم وذهبت النساء تبقى مع تودّد تتحدثان كأن الوقت أمامهما طريق ممتد لا يخصهما أين ينتهي أو يقود ولا تريدان منه سوى الانتظار على أحد جانبيه حتى يطلع عليهما الصباح.

وعندما يتوغل الليل ويستغرق أهل البيت العالي في النوم، تشمِّر المرأتان عن سواعدهما وتبدآن في العمل، تجمعان ما اختصرته آمنة من طحين على مدى الأيام السبعة لعجنه وخبزه. وما إن تنضج الأرغفة حتى تقوما بصفها في سلتين كبيرتين تدسان في إحداهما الورقة المطوية التي أتت بها تودّد مخبأة في صدرها. ثم تحمل كل منهما سلة على رأسها وتسيران في ستر الليل إلى المكان المعلوم حيث تلتقيان بالشاب الذي تتعرفان عليه بطوله الفارع وخطوته العرجاء وعبارته الهامسة: «صباح الخير» تجيبان بنفس الصوت الهامس: «صباح النور» يحمل السلتين ويذهب بهما لتهريبهما إلى أقبية المساجين.

وتعود آمنة وتودد كما ذهبتا شبحين نحيلين يتحركان في سكون الظلام ولا تتبادلان الكلام إلا بعد أن تصلا إلى أمان المطبخ. تضعان ركوة قهوة تساعدهما على مواصلة العمل في الصباح الوشيك بعد أن أمضيتا الليل بلا نوم، تتحدثان في مواضيع شتى ولكن أيًا منهما لا تشير إلى ما قامتا به وكأنه لم يحدث أو حدث لسواهما فلم تعرفا به.

لا آمنة أفشت سرها لسعيد ولا سعيد أفشي لآمنة سره الذي كتمته أوراق الموز العريضة وجذوعها المتقاربة حيث كان يلتقي مع شاب من شباب العبيد. يملي الشاب على سعيد الرسالة فينهمك سعيد في كتابتها بخط دقيق وواضح. يطويها الشاب بعناية ويخبئها ثم يحملها إلى امرأة من نساء المزارع توصلها بدورها إلى تودّد.

ثم ذهب سعيد لمقابلة عمَّار وقد قرر مفاتحته في الأمر. قال لزميله: «قد يقبل وقد يرفض ولكنه عمَّار في الحالتين لن يشي بنا لأحد».

قالها له بلا مواراة:

ـ نعد العدة لخلع السلطان.

تطلع إليه عمَّار وظل صامتًا.

ـ ستقول: سلوك طائش لا يجر سوى المصائب لكننا نعد العدة والله المعين.

ـ تقول نحن يا سعيد، فمن أنتم؟

ـ عبيد المزارع وبعض الصيادين.

ـ العبيد يعدون لخلع السلطان؟

ـ نعم وهم يريدونك معهم.

ضحك عمَّار ضحكة خافتة بدت كالأنين.

ـ وما الذي يقدمه عبد مثلي لا تحمله ساقاه.

ـ نريدك أن تصف لنا القلعة من الداخل: قاعاتها وممراتها ومداخلها ومخارجها، مخدع السلطان وقاعة جلوسه. هل تستطيع ذلك يا عمَّار؟

ـ هذا أمر سهل يا سعيد ولكن هل تقتحمون القلعة، وكيف تقتحمونها والحراس مسلحون على الأبواب؟

ـ سندبر الأمر يا عمَّار.. كل ما نطلبه منك هو أن تصف لنا القلعة من الداخل وبوابات الأقبية، عددها وأماكنها وعدد الحراس الواقفين بكل بوابة.

ـ هل تقتحمون أقبية المساجين أيضًا؟

ـ نعم سنفعل يا عمَّار.

ـ بإمكاني أن أسرق لكم مفاتيح الأقبية.

قالها عمَّار بهدوء وثقة حتى تشكك سعيد في صفاء عقله.

ـ كيف؟

ـ حامل المفاتيح مرجان، وهو رجل نحيل يشخر بصوت عال جدًا ويتقلب كثيرًا وهو نائم، ينام في القاعة نفسها التي أنام فيها.

ـ وما دخل ذلك بالمفاتيح يا عمَّار؟

ـ إنه يعلق المفاتيح في طوق محيط بخصره وعندما ينام يخلع الطوق ويضعه تحت فرشته. قلت لك إنه يتقلب كثيرًا فيسهل سحب طوق المفاتيح من تحته، ولأنه يشخر فلن ينتبه لو أحدثت المفاتيح رنينًا وأنا أسحبها.

ـ ولكن الآخرين قد ينتبهون.

ـ إنهم يشقون طول اليوم فينامون في الليل كأنهم قتلى.

ـ لو أمسكوا بك وأنت تسرق المفاتيح سينزلون بك عقابًا شديدًا يا عمَّار وقد.. قد يقتلونك.

ـ لا تخف يا سعيد.

أخذ عمَّار يصف القلعة لسعيد. أتى بفرع شجرة وراح يرسم على الرمال. رسم القاعات والممرات والأبواب، ثم قال وهو يحرك العصا في يده ويمحو ما رسمه:

ـ أعد لي ما قلته، أعده بالكلام أولاً، ثم كرره وأنت ترسم على الرمال لأتأكد أنه ثبت في رأسك.

غادره سعيد بعد أن اتفق معه على موعد في الليل.

ـ سيكون معي من يساعدنا. نأخذ طبع المفاتيح على الشمع ثم تحملها راجعًا لتعيدها حيث كانت.

بقي عمَّار جالسًا في مكانه. لم يكن هادئًا الآن كما كان وهو يتحدث مع سعيد بل بدا لنفسه كالمحموم يعلو صدره ويهبط فيسمع صوت أنفاسه. هل هو الخوف أم شيء يشبهه؟ هكذا شعر يوم عرف أن مليحة في المخاض. ركض كالممسوس حتى وصل إلى حي الصيادين وتوارى بين الأشجار وجلس ينتظر وهو يتصبب عرقًا وروحه تنتفض كأنما تعلقت بخيط يجذبها للموت أو للحياة حتى رآهم يخرجون من بيتها بالبشارة فبكى وصلى لله، وكانت صلاته كصلاة النصارى وهو في مكانه لا يتحرك لأن جسده كان واهنًا لا يقوي على القيام أو الركوع.

ولما جاء سعيد وقال: «نعد لخلع السلطان» استمع إليه بهدوء كأن الخبر عادي أو كأن ذلك الكلب الجحود، بمركوبه ونسائه وقلعته، لا يجثم على صدره -كيف لرجل أن يحمل على صدره قلعة من حديد وحجر؟!- ولكنه حملها على صدره وعاش، وأحب مليحة ذات الضفيرتين وطابع الحسن ثم ذهبت مليحة، وعاش.

العبيد يريدون خلع السلطان فهل يقف الله إلى جانبهم فيرى عمَّار نفسه قبل موته طليقًا من سجنه الذي طال حتى ترادف مع العمر أم أن الله

كتب في كتابه أن يكون العبيد معذبين في الأرض مستضعفين فيها؟! هل ينصرهم الله أم يتركهم؟

انتحب عمَّار وهو يتوجه إلى الله بالدعاء وظل يبكي حتى تذكر حلم سعيد فتمتم: «إنها بشارة»، مسح دموعه وقام متكئًا على عصاه وسار في اتجاه القلعة التي بدا له بنيانها الحجري الداكن وجودًا شبحيًا زائلاً كالكوابيس. كرر لنفسه بصوت مسموع: «لن يتركنا الله... لا يمكن أن يتركنا.. الحمد لله أنني تأخرت في شراء الطير الزاجل... سأنتظر حتى نخلع السلطان ثم أكتب لأمي الرسالة وأبشرها».

* * *

(١٢)

الســـراج

كان السر يتوغّل مع الصيادين في البحر، مع العبيد في المزارع، مع البحارة في رحلاتهم البعيدة، مع ذاكرة الشيوخ المقعدين بأبواب الدور، ومع النساء وهن يغنين تهنينات النوم للصغار.

كان السر يتوغل وهو محفوظ في القلوب، مقفل عليه ككنوز الأغنياء إلى أن حانت الساعة فأدار كل في القفل مفتاحه وحمل سراجه بيمينه ومضى مع الآخرين.

الأولاد والبنات، الرجال والنساء، المسنون تسندهم عصيهم والمقعدون تحملهم أكتاف القادرين، والرضع على صدور الأمهات، عبيد المزارع والصيادون والبحارة والغواصون والنجارون والحدادون والبناءون أطلقوا طيورهم في اتجاه القلعة وتبعوها وفي أيديهم القناديل.

آلاف القنابل تسطع في العتمة وتشق السكك الوعرة المتعرجة، وتصعد. يشاهدها الحراس في أعلى الأبراج ويحدقون متشككين في عقولهم: برق يخطف الأبصار! برق على غير المعتاد من البروق يشق

الأرض وليس السماء!. برق يسري صاعدًا في اتجاههم. كانوا يتساءلون عندما داهمتهم أسراب الطيور فبدءوا إطلاق النار.

واصل الناس الصعود إلى أن وصلوا الأقبية فأعملوا المفاتيح في الأقفال والمناكب في الأبواب والفئوس في الجدران. انفتحت الأقبية، هللوا، تقدموا، تراجعوا، غشيت عيونهم عتمة لها رائحة القبور، زعزعت أحشاءهم رطوبتها المعتقة.

ثم أتت من جوف الظلام الطيور، مندفعة كأنها عمياء ـ ولم تكن ـ طيور نحيلة راجفة تساقط ريشها وتطير، توزعت قلوبهم الرهبة والوجل وفرح حييّ وهم يرفعون قناديلهم عاليًا، ليصنعوا قوسًا من الضوء لبشر الأقبية الذين تدفقوا خلف الطيور.

واصلوا الصعود وطيور كثيرة تتساقط مخضبة بدمائهم، ينحني الصاعدون عليها ويحملونها على رءوسهم ويكملون... عدوهم أمامهم: السلطان في القلعة والحراس بالبواريد على الأسوار. يتقدمون حتى يضربوا طوقهم ويطرقوا بالقبضات والمناكب والأقدام والحديد والأخشاب والحجر، قلعة السلطان.

عدوهم أمامهم، وخلفهم بحرهم اليومي الأليف فكيف؟! العدو أمامهم يواجهونه ويقدرون، العدو وراءهم يقصف من بوارجه فتتساقط الأجساد وتنطفئ القناديل وتشتعل النيران تحاصر الحياة وهي تركض للإبقاء على ما تبقي من حياة في الحياة حتى سكن الفضاء صراخ مكتوم كتعاقب وهج النار وعتمة الليل على عيون الراكضين من الموت. «لماذا لم يحسبوا حسابًا للإنجليز؟ لماذا لم ينتبه وينبههم إلى أن الإنجليز سيتدخلون لحماية السلطان؟».

كان السؤال في قلب سعيد جمرة تعذبه وهو يركض بحثًا عن عمَّار بين ألاف الهاربين من القصف. «لابد أن يجد عمَّارًا، لا بد أن يجده ليحمله على كتفيه وينزل به التلة... وآمنة... أين...» لم يكتمل السؤال إذ فاجأته القذيفة فمال جذعه وسقط بالطائر الذي كان يحمله فوق رأسه.

* * *

شاهدت آمنة كل شيء... حفارو القبور وهم يعملون معاولهم ويكدسون التراب تلالاً على الجانبين والشق الغائر في بطن الأرض والحراس يهبطون التلة وهم يدفعون أمامهم العربات المستخدمة في نقل التراب والذبائح مكدسة بالجثث.

آمنة شاهدت كل شيء وهي تجلس في ظل مصلوب توسمت فيه شبهًا من سعيد. لم يكن سعيد وكانت تعرف ولكنها جلست بلا حراك ثلاثة أيام بلياليها حتى أنزل الحراس جثته فحملته.

قرفصت وأفسحت المدي بين فخذيها وأشرعت ذراعيها لتسع الجسد كله ولم تسعه، فبقيت الساقان مثنيتين والذراع متهدلة فمالت عليه بوجهها ورأسها وجذعها لتحتوي ما فاض منه.

* * *

آمنة تصاحب النجوم، «نورها شوق الوصل والتلاقي. ونارها عذاب الفراق» هذا ما كان يقوله عمَّار.

لم تعد تبكي فقد جفت من عينيها الدموع. ولم تعد تذهب لتخبز في مطبخ السلطان، ولو أرادت لما أطاعتها أناملها.

تقضي نهارها في الانتظار، فإذا ما سجى الليل وأتت النجوم تحدثت إليها. هذا النجم سعيد، وذاك حافظ، وذلك عمَّار، وتلك تودّد، والنجم

البعيـد هنـاك محمـود. تُحـدّث آمنة كل نجم على حدة ثم تُحدّثها مجتمعة، تعيد عليها الحكاية من أولها: «في البدء كنت أخاف البحر... كنت صغيرة خضراء أجهل الحياة، ألثغ في الكلام ولا أخاف إلا البحر. لم أكـن أعـرف أنه..» تحكي ولا تتوقف إلا لكي تتأكد أنهم يتابعون «هل تسمعني يا سعيد؟»، «أليس هذا ما حدث يا عمَّار؟»، «ألا توافقينني يا تودّد»، «وأنت يا حافظ ماذا تقول؟»، «ألـم تقل لي إن هذا ما حدث في الإسكندرية يا محمود؟»... وتواصل الحكاية.

تمـت

القاهرة ١٩٨٩

صدر للكاتبة:

- الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة في أعمال غسان كنفاني، ١٩٧٧.
- جبران وبليك (دراسة باللغة الإنجليزية)، ١٩٧٨.
- التابع ينهض: الرواية في غرب إفريقيا، ١٩٨٠.
- الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا، ١٩٨٣.
- حَجَر دافئ (رواية)، ١٩٨٥.
- خديجة وسوسن (رواية)، ١٩٨٩.
- رأيت النخل (مجموعة قصصية)، ١٩٨٩.
- سراج (رواية)، ١٩٩٢.
- ثلاثية غرناطة (غرناطة ومريمة والرحيل)، ١٩٩٤-١٩٩٥.
- أطياف (رواية)، ١٩٩٩.
- في النقد التطبيقي: صيادو الذاكرة، (دراسات نقدية)، ٢٠٠١.
- تقارير السيدة راء (نصوص قصصية)، ٢٠٠١.
- قطعة من أوروبا (رواية)، ٢٠٠٣.

- بالاشتراك مع آخرين، ذاكرة للمستقبل: موسوعة الكاتبة العربية، ٢٠٠٤ (٤ أجزاء).
- الإشراف على ترجمة الجزء التاسع من موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، ٢٠٠٦.

"سراج"

حكاية عربية

في مزج أخاذ بين الواقع والخيال تتحرك هذه الرواية على خلفية اقتحام الإنجليز للإسكندرية في مقدمة احتلالهم مصر. تتضافر الحكايات هنا بلغة سحرية جذابة لتحكي عن سلطان عربي يهيم بجواريه ويتيه بجماله، فيما آخرون مشردون يهربون من الاحتلال وتحيرهم هزيمة عرابي.

صدر للدكتورة رضوى عاشور عن دار الشروق: «ثلاثية غرناطة» (٢٠٠١)، و«تقارير السيدة راء» (٢٠٠١)، و«قطعة من أوروبا» (٢٠٠٣)، و«فرج» (٢٠٠٨)، و«أطياف» (٢٠٠٨).



6 221102 023184

دار الشروق
www.shorouk.com